

بريد تائه

رواية





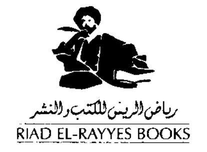


بريد تائه

قمر الزمان علوش

بريد تائه

رواية



رياض الريس للكتب والنشر
RIAD EL-RAYYES BOOKS

Stray Mail
by Qamar Al-Zaman Alloush
Novel

First Published in April 2009

BEIRUT - LEBANON
elrayyes@sodetel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 411 - 5

الطبعة الأولى: نيسان (أبريل) ٢٠٠٩

لشراء النسخة الإلكترونية:
www.arabicebook.com

تصميم الغلاف: دينا خليفة
(محترف بيروت غرافيكس)

1

ـ لا داعي للاستعجال فأنا هنا لأقضي الليل كله معك.. دع كل شيء وراءنا هذه الليلة..

قالت ذلك وهي تخترق أرض الحجرة بجسد فتي ثائر لا يروى، وروح متهالكة على الفواحش. حتى إذا وصلت إلى السرير جلست على طرفه، ثم بحركة ناعمة متمرسة أسدلت طرفي الفستان عن كتفيها وتركته يسقط على الأرض متكوماً عند قدميها.

أضافت ضاحكة:

ـ لقد أخذت إذناً بذلك لا تقلق..

خلّصت قدميها من الحذاء والفستان دفعة واحدة، ثم ضمت أذيال شلحتها الشفافة ورفعتها إلى مستوى خصرها كامرأة تظل

على ثقة بامتلائها بشبابها وجاذبيتها الجنسية. ثم ارتمت على بطنها جانباً فوق السرير متعمدة إثارة الرجل بضجيج ردفيها المغويين. سرير بأعمدة طويلة ذات تيجان نحاسية مزخرفة وله رفاصات تصدر كلما مست صريراً خافتاً بات يكتسب مع جلبة مفاصل هذه المرأة تناغماً موسيقياً أخاذاً. دفنت وجهها داخل طيات الغطاء الرقيق وارتفع صوتها خدراً مصقولاً:

ـ أنا جاهزة..

لا شيء يحبه أدهم أفندي بوست أكثر من هذه العبارة التي تطلقها رتيبة الأغواني عادة من مكانها فوق الفراش إيذاناً ببدء عملهما المشترك الوشيك. لكن شيئاً آخر أحبه بنفس المقدار هذا المساء هو إعلانها الحر والمباشر بقضاء الليلة بطولها معه وأنها أخذت إذناً بذلك. وهذا يحدث لأول مرة منذ بداية علاقتهما هذه قبل أربعة أشهر تقريباً من الآن.

هبّ إلى درج الكومودينة القريبة بإحساس شامل بالانتشاء، وأخرج من درجها العلوي أختامه البريدية ذات الأحجام والأشكال الهندسية المختلفة، والتي يتعين عليها نقلها إلى السرير عبر دفعتين نظراً لكثرتها، ثم انحنى فوق المرأة وهو سريع الكلام وعيناه تجوبان فوق مساحات الجسد العاري الملتمع تحت الضوء كلآلئ حية:

ـ كنت سأطلب منك هذا إذا كان بمقدورك أن تفعليه. كنت سأشرح لك معنى الشعور بالوحدة لدى عجوز مثلي عند اقتراب النوم، وأنتظر ألا تمانعي. فمنذ أسبوع ولدي كل ما يلزم للعشاء وحتى زجاجة نبيذ أيضاً.

قبل أربعة أشهر من الآن كان أدهم أفندي بوست يعيش ما يمكن وصفه بالحالة المنتهية. فقبل عام من ذلك تقريباً أحيل إلى التقاعد بعد أربعين عاماً من العمل المتواصل في مركز بريد وتلغراف البلدة، ولم يعد هناك ما يربطه بذاك المبنى القديم سوى بعض زيارات المجاملة التي يقوم بها لزملائه القدامى في المصلحة، بحجة معلنة للاطمئنان على سير العمل في المركز، بينما يقوم بها في الحقيقة بدافع الحنين وليتغلب ولو قليلاً على حلقة الفراغ الموحشة. لعله يعيد عجلة الزمن إلى الوراء عندما كان لا يستطيع تصور نفسه إلا في غرفة مبرقة التلغراف يرسل أو يتلقى البرقيات، أو خلف طاولته المكتظة بالرسائل والطوابع والأختام البريدية، وأمامه حشود لا تنقطع من الزوار والمراجعين.

مثله مثل جميع المتقاعدين من موظفي الدولة، احتاج إلى زمن لاستيعاب الصدمة. يخيل إليهم أنهم في الوقت الذي باتوا يتمتعون فيه بنضوج خبراتهم المهنية واطلاعهم الواسع على خفايا العمل ودقائقه، تقوم الدولة بإعفائهم من خدماتهم وإلقائهم داخل بيوت لا عمل لهم فيها سوى الهضم والتنفس والتأقلم العسير مع ساعات الوحدة الأليمة. كان دائماً من أنصار النظام الوظيفي، لذلك لم يتذمر قط من كونه إحدى ضحاياه، لكنه في أحيان قليلة كلما انتابته مشاعر الموظف الذي انتهى قبل أن يستنفد كل طاقة الحياة لديه، كان يوضح لكل من يتوجه بالحديث إليه بالقول:

ـ إن أحداً لن يعرف أسرار الدولة أبداً. لكن لا يمكن الإنكار

رغم كل شيء أنها قد تخطئ أحياناً.

استوقفته رتيبة وهي ترمقه بنظرة حماسية من الأسفل إلى الأعلى وقالت:

ـ تصورا! بتنا نعيش كزوجين تحت سقف واحد ولم يعرف أحدنا عن الآخر من أي برج هو؟ أنا من برج القوس، وأنت؟

أجابها وهو يعيد تركيزه على عمله المليمتري من خلف نظارته ذات الإطار الذهبي:

ـ وأنا من برج القوس أيضاً. حقاً إنها لمن مصادفات الحياة اللطيفة.

زفرت المرأة زفرة طويلة وقالت:

ـ أوه لا!! أصحاب هذا البرج يتعذبون كثيراً.. اسألني أنا! لا أتمنى لك أن تقاسي ما قاسيت.

ومن غير اهتمام واضح تابع أدهم أفندي حديثه مع المرأة دون أن يتخلى عن عمله:

ـ ليس الأمر واحداً بالنسبة للجميع. وعلى كل حال فأنا لا أعرف شخصاً ثالثاً من هذا البرج لأوكد نظريتك هذه أو أنفيها.

صاحت رتيبة:

ـ بل تعرف!. ألا تعرف العجوز مزنة؟ تلك المرأة التي تعمل في تغليف الشوكولاه والكرميلا؟

انتبه أدهم أفندي لنغمة السؤال أكثر من مضمونه:

ـ بلى أعرفها.. ما بها هذه؟

أجابت رتيبة بحماسة متدفقة:

ـ لقد رأت ليلة القدر المباركة، وهذا أمر مؤكد. لكن المسكينة لم تستفد منها شيئاً لأنها من برج القوس. أرأيت كم يسخر الله من أبناء هذا البرج؟

انتظرت قليلاً لترى تأثير المفاجأة على وجه أدهم أفندي. وعندما لم تجد سوى تعبير باهت يعيد الصدى لا ينم عن أدنى اقتناع، عدلت من ضجعتها وجلست متربعة فوق الفراش، ثم تابعت:

ـ لو رأيتها؟ كانت أشبه بملاك.

رتيبة رأتها في الصباح، وكانت من بين حشود الزوار ومستطلعي الأنباء الذين امتلأت بهم دار العجوز مزنة بعد مرور أقل من ساعة على انتشار النبأ الغريب في البلدة. رأوها في حجرتها جالسة بكل قعدتها على الأرض تحيط بها أكوام من الشوكولاه المغلفة بأوراق زرق وصفر وأرجوانية لامعة، وقد هيمن عليها سحر غريب وبدت غير قادرة على أن تتلفظ بجواب. ودهشوا لما رأوا في عينيها المحدقتين في فراغ فلا يطرف لهما جفن. كل ذلك الإصرار والثقة بأن ما رأته ليلة أمس أثناء عبورها في حقل البط السعيد المجاور للبلدة، كان رؤيا حقيقية في اليقظة وليس في المنام. لكنهم خافوا من الانطباع الذي ولّدته هيئتها المريبة لديهم منذ النظرة الأولى بأنها جنّت، أن يكون انطباعاً صحيحاً، فاندفعوا في سؤالها عما رأته وعما حدث في تكرار حي.

وبعد صمت طويل أجابت العجوز بصوت منطفئ كما لو أنه

ينطوي على سر عظيم:

ـ كل شيء كان هادئاً لكن ليس في مكانه.

إجابتها الغائمة تلك زادت الأمور تعقيداً في مخيلاتهم، وعندما ألحوا في إزعاجها لعلها تتذكر شيئاً، كانت انفعالاتها تشتد وجفناها يختلجان، ثم يظهر على وجهها الإشراق فجأة وتقول إنها لم تعد تذكر شيئاً.

هذا ما كانت تقوله عقب كل تجربة من تجربتين سابقتين عايشت فيهما الموت وخرجت منهما حية. فقد سبق أن أعلن موتها مرتين، وحُفر لها قبران، لكنها في اللحظة الأخيرة من عمليات تحضير الجثة للدفن، كانت تند عن قدمها اليسرى ارتعاشة مرئية هي أول مظاهر عودة الحياة إليها. ثم كانت تنهض من محفتها وسط دهشة النسوة وافتتانهن وتطلب ثيابها لترتديها بنفسها وماء لتشرب. بعد ذلك سئلت وهي بكامل يقظتها الذهنية عما يحدث لها في مواجهة الموت فأجابت:

ـ بالطبع حدثت أشياء وأشياء لكنني لا أذكرها، الشيء الواضح الآن هو أنني أحس ببعض الأوجاع في عنقي وكتفي ولا شك أنها من أثر الرقاد الطويل على المحفة.

هذه المرة تبين لهم أيضاً أنها ليست لديها أدنى فكرة عما حدث، كما أنها لم تعد راغبة بوجود أحد إلى جوارها لأن الأسئلة بدأت تثير اضطرابها لشبهها الشديد باستجوابات الشرطة.

تاه الناس في الظنون والتقولات حتى المساء، إلى أن جاء

مصطفى الجانودي أقدم مكتبي في البلدة وبيّن في شروح مستفيضة أن الليلة الفائتة التي رأت فيها العجوز مزنة تلك العلامات الفارقة في الكون، كانت ليلة الشعلة العظيمة حسب التقويم الهجري التي تقسم فيها الأرزاق والأعمار للسنة الجديدة، وتكون فيها أبواب السماء مفتوحة لأحلام المؤمنين. واستبعد الجانودي أن يكون ما رأته مزنة علامة من علامات يوم القيامة المنتظرة كما قدر الآخرون، إنما هو تجلٍّ من تجليات ليلة القدر المباركة التي تستجاب فيها بقدرة الله تعالى رغبات الرائين ودعوات الداعين. ثم ختم حديثه لكل من أراد أن يصغي إليه بإبداء الأسف على العجوز مزنة بعدما فاتتها فرصة الاستفادة من معجزات تلك الليلة بسبب جهلها لها. مفسراً نسيانها لما حدث معها بأن ليلة القدر المباركة تحتفظ العناية الإلهية بسرّها وتتراءى للرائي ثم ينسى ما رآه لأنه لن يكون بعدها بحاجة إلى ذاكرة.

روت رتيبة لأدهم أفندي تلك الوقائع بإشراقة صوفية غريبة على طبعها، لعله يستجيب لأحاسيسها بأن في الحياة بعض الأعاجيب. وكانت في سبيلها لأن تهتف: أنا من كان يجب أن ترى ليلة القدر لا سلة العظام هذه، عندما رأت أدهم أفندي يقبض بيده على ختمه وذراعه مرفوعة ومتجمدة في الهواء وعيناه زائغتان تبحران بعيداً في عالم آخر. خشيت أن يدخلها في جولة من معمياته الفلسفية التي تكلفها عادة الكثير من الصبر ورهق الأعصاب، فهبّت من قعدتها وهي لا تزال عارية إلا من أختام أدهم أفندي التي مرّغها على جلدها ووصلت إلى حدود النهدين، وصاحت بحيوية مرحة:

ـ أنا جعت. تعال ساعدني في تحضير الطعام. انهض قبل أن

أدفنك داخل هذه النفاية.

سحبته من يده وقادته نحو المطبخ بخفة وطرب وعريها لا يزال على حاله.

في اليوم التاسع من شهر آب القادم يكمل أدهم أفندي بوست عامه الثالث والستين. وبعد كل هذه السنين الطويلة كان يظن أنه سمع بكل شيء لكنه لم يسبق له أن سمع بأمر مشابه. لم يفكر بصدق الرؤيا أو عدمه، مع أنه كان يعتقد بأن زمن المعجزات آخذ بالانحسار بسبب مخترعات العصر العجيبة التي لا تتوقف عند حد. فكر بصاحبتها العجوز مزنة وحسب. فلا هو ولا أحد غيره من أهل البلدة كان يشك لحظة واحدة بأن للعجوز مزنة حياة تكاد تشبه سيرة القديسين. فهي وهبت كل كيانها لحب الآخرين فما استطاعت أن تكره أحداً وما خاصمت أحداً وما شاركت قط في نميمة أو شجار. ومنذ صارت يافعة عملت في مصنع سكاكر فما لوثت يديها إلا بتغليف الكرميلا والشوكولاه. ويتذكر الجميع طهرها النادر لأنها لا تزال حتى الآن بتولاً لم تمس، وقد كشفت بعض صويحباتها سراً مدهشاً هو أنها قبل سنين كثيرة عزمت على الزواج من رجل هامَ بها حباً، وكانت وقتئذ لا تحمل عن الزواج أدنى فكرة سوى أنه يتم بالاتصال بين روحين. لكنها عندما كشفت لها بعض رفيقاتها أشياء متخيلة عن آلية الزواج الغرائزية وما يمكن أن يجري فيها من أعمال قبيحة، تراجعت عن عزمها ذاك وألغت الزواج دون أدنى تردد، ولم تدع أحداً بعد ذلك يمسها لتظل في منأى عن كل لوثة أرضية. وهكذا أضيفت إلى مزاياها الكثيرة مزية أنها لم تر عورة رجل قط. كل هذا أعاد إلى الأذهان خطأ التوقعات بأن تصيبها تجاربها المتكررة مع الموت بمس من الجنون. فهي برهنت بسلوك سوي على أنها

لا تزال محتفظة بمداركها وقواها العقلية سليمة، وأنها عندما تموت لا تنقطع عن الحياة إلا كما لو أنها تناولت جرعة كبيرة من مادة منومة.

طهر مزنة ذاك، أشعر أدهم أفندي بالإثم قليلاً، ليس لأنه ارتكب المعاصي في السابق وقد ارتكب منها القليل، إنما لأنه يرتكب المعصية الآن ولم يعد هناك متسع من الوقت لطلب الغفران.

أراد أن يقول لرتيبة هذه الحقيقة التي باتت تؤرقه باستمرار، إلا أنه لم يشأ أن يهز فرحها تلك الليلة فصمت. فكر وحسب بأن هناك أموراً في هذه الدنيا من تدبير الله، وأخرى من تصميم الشيطان. وأن أعظم محنة يضعنا الله أمامها نحن البشر هي أن يترك لنا حرية الاختيار بينهما، ولا شك بأن هذه المحنة تتعاظم كلما تقدمت بنا السن نحو الهاوية.

ومتأملاً بحادثة مزنة الخارقة التي لا تخلو أيضاً من بواعث على الضيق، تذكر بهاء ذلك العصر البعيد الذي قبضت فيه أمه عليه وهو يتلصص من شق الباب على امرأة تتعرى من الجيران. تركته إلى أن أوى إلى فراشه مساء وجاءت تهمس في أذنه برقة:

ـ من الإثم النظر إلى امرأة عارية وعندما تفعل ذلك فإن الله يراك.

تذكر ذلك دائماً يا بني.

بعد أن غادرته الأم، نهض من سريره وعاقب نفسه بالركوع على مفرش من الحمص الجاف حتى أذان الفجر. لو استمر الأمر على تلك الصورة من الطهر والنقاء لما كان الآن يغرق في مستنقع

هذه المرأة الفوسفورية ويتقلب في سرية وجودهما معاً وهو يتأمل حركاتها ويستشف لمعان جلدها الرقيق على تلك العادة التي تعودها في ظلام وحدته وكون بها كنوز خياله. هكذا كان يفكر بالأمر دون أن يشكل هاجساً بالنسبة له.

من رائحة النبيذ المختلطة بأنفاسها الهادئة تنبه أدهم أفندي إلى أن رتيبة أغفت منزلقة إلى جواره بنوع من الألفة الجريئة. تعابير غريبة، الشذى المنبعث من الوجه، النظرات الزائلة، الضوء الذي يسبغ على فمها المفتوح قليلاً نوعاً من النشوة المثلى، كل ذلك يعطي كآبتها جمالاً لا يضاهى. أمال رأسها نحو صدره وأغرق أنفه داخل شعرها مستمتعاً بألق شبابها الدافئ، مقتنعاً بأن العالم يغلق باباً ليفتح باباً آخر. وخرج بفكرة موضوعية هي أنه كان بمثابة الميت قبل أن يقابلها، وأن قدره كان كريماً معه بلا حدود عندما أرسل له هذه المرأة المجنونة أبداً في حياته بحيث لا يبقى له بوجودها أمنية أخرى.

والحق لم يكن أدهم أفندي بوست مجافياً للحقيقة في اعتقاده هذا، فبعد أن أحيل إلى التقاعد تقلص دوره في الحياة العامة وقلّ زواره، وأخذ يفقد أصدقاءه القدامى دون أن يحظى بصديق جديد. فالناس مهيأون بطبعهم لنسيان أشخاص مرموقين في الدولة خسروا مناصبهم ولم يعودوا مفيدين لهم في شيء. وبعد أن صدمه تجاهل الناس وجفاؤهم وصار وجوده في المقهى العالي والأماكن العامة الأخرى يكتسب أهمية أقل فأقل يوماً بعد يوم، انزوى في بيته كآخر حصن لشيخوخته لا يغادره إلا في ساعة الصباح أو ساعة المغيب للمشي والحركة قليلاً في دروب لا يطرقها أحد قبل أن يتعفّن داخل حجراته. ودائماً كان

يسلك الطرق نفسها ويطرق الأمكنة نفسها ويقوم بالأعمال اليومية المعتادة دون أن يتغير شيء في حياته التي بدت خالية من أي شيء. واظب عليها مع ذلك لأنه في فترة لاحقة بدأ يحس داخل البيت بالاضطراب والهلوسة، فلم يعد من النادر أن يستيقظ آناء الليل وهو يسمع صوت نقرات المبرقة، ثم ينهض بإحساس من عليه أن يتلقى برقية عاجلة. وفي أوقات أخرى عندما يصبح الضجر مزيجاً من الموت والهذيان الخانق كان يجد نفسه بلا وعي يقوم بختم الأوراق المهملة والطاولة والجدران والأواني الخزفية وأطباق الطعام وكل ما يقع بين يديه، بأختام البريد التي ملأت درج الكومودينة وظل محتفظاً بها بموافقة رسمية.

أختام ذات نقوش وكتابات متعددة تعود إلى عهود منصرمة بعضها بطل استخدامه، وبعضها الآخر لا يزال قيد الاستعمال. أختام بأحجام مختلفة ذات مقابض خشبية مرصعة بمسامير نحاسية عبرت معه رحلة حياته الطويلة وبقيت الذكرى الوحيدة الملموسة عن وظيفة حفلت بالنشاط والمتعة والشهرة عقوداً من الزمن.

هذا ما كان ينقصه، أن يغرم بامرأة. يبدأ عادة من أصابع قدميها. ختم إلى جوار ختم فختم آخر فآخر. كما في التطريز طعنة وراء طعنة حتى نهاية اللوحة. يرتفع إلى الساقين ثم الفخذين فالسرة إلى أن يصل إلى الثديين فالعنق، ثم يبدأ من أصابع يديها إلى أن يصل إلى الإبطين. وهناك يتوقف ليقلبها ظهراً على بطن ويتابع عمله ذارعاً بشرتها بطعنات الأختام وسط محيط من الدهشة والإثارة والفضول الشره. أحياناً يرسم البقع العريضة ثم تأتي

مشاعره لتملأ الفراغات. أجزاء مبعثرة تلتئم وتحيل انحناءات الجسد وخطوطه إلى تكورات جمالية لا نهائية كوهم الحلم. وعلى عكس ما يمكن أن يتكهن به المرء في أوقات عصيبة كهذه، كل منفذ يقود إلى منفذ آخر، وكل جزء يقود إلى جزء أكثر اهتياجاً، وكل دقيقة تمر تكون مدهشة ومشبوبة بالوجد، كان أدهم أفندي يتبدى أقل توتراً وأهدأ روحاً، فيزاول عمله بتركيز متناهٍ وهو يتجول فوق تلك البقع الظامئة لعبث الحواس، متقناً فن التحدث السري مع الجسد، مضفياً بأختامه على كل ما يلمسه نوعاً من القداسة الدنيوية.

كان حصيناً أمام الغواية بقرار شخصي. فلم يكن ما يحسه شبقاً بل نوعاً من الغبطة النقية. في المرة الأولى وفي لحظة نادرة من الصفاء شعر بأنه كان يتوق منذ أحقاب طويلة لأن يجد عملاً روحانياً خالصاً يعبر به عن جوهره الفعلي، فما وجده إلا في ذلك الفلكلور الذي يرصّع به جسد تلك المرأة والشبيه باللعب العائلي البريء. حتى عندما كانت أختامه تبدأ بالاقتراب من مواضع الفتنة الأكثر ملاءمة للغريزة، كان يحس بأن ما يقوم به عند هذه الحدود المرسومة بقرار، يشبع شهوته ورغبته ويعني له حباً يستمتع به كالحب نفسه، لكنه كان بحاجة إلى التركيز على تلك المواضع لكي يملأ بها كل مكان فارغ في مخيلته إلى أن يتمكن من الوصول إلى زوال الأوهام بالصورة المنشودة. فأبداً ما اتخذ خطوة أبعد من هذا طيلة الشهور الماضية رغم أن المرأة منحته جسدها ليتصرف به وفق نزواته ككتاب مفتوح.

وفي تلك المرة ما إن خرجت رتيبة من بين يديه ونظرت إلى نفسها في المرآة حتى رأت جلدها كله مبقعاً وزاخراً بالنقوش

والزخارف والطلاسم السحرية التي لها هيئة لحاء الشجر الميت، فما ملكت إلا أن تصيح بانفعال:

ـ يا للروعة!! هكذا سأبدو عندما أموت.

أرعبته الفكرة، لكنه منذئذ حرص على أن يبقى وجهها بلا أختام لكي لا تتسلل إليها صور الموت المشؤومة ما دام يبقى فيها شيء ينبض بالحياة.

مع هذا لا ينبغي أن يتبادر إلى الذهن أن أدهم أفندي بوست كان في هذا الوقت بالذات في حالة منتهية من الناحية الرجولية. كما لا يمكن الشك بأنه أراد من عمله الطقوسي هذا الذي تمتزج فيه التأملات بالأفكار الخالصة، وأشتات الذكريات بالهندسة الهلوسية والإيماءات الفلسفية بالرسوم الفوضوية الشائكة، مثلما تمتزج الكوابيس في عالم الروح بوقائع الحياة اليومية الحية، أن يصنع من كل هذا ستاراً يخفي وراءه عجزاً جنسياً محتملاً بسبب الشيخوخة. ولو كان الأمر كذلك لكان عليه أن يرتمي أرضاً بانتظار الموت وهو يرى إلى كل هذه المفاتن ولا يستطيع أن يفعل شيئاً. فقبل أقل من عامين تقريباً، أي قبل تقاعده بفترة التقط عاهرة طرقات جوالة انقطعت بها السبل في البلدة فلا هي تملك مالاً لتتابع طريقها ولا هي تعرف مكاناً تأوي إليه. اقترح عليها أن تنام في بيته لأن فندق البلدة قد لا يوفر الأمان اللازم لامرأة وحيدة. وافقت الفتاة واصطحبها إلى بيته. وتلك الليلة بالذات حملت إليه إحساساً رائعاً بأنه لا يزال يمتلك من قدرات الرجال الذكورية ما يمكنه من البلوغ بأي امرأة إلى ذروة النشوة وبتآلف تام. لفت انتباهه أن المرأة عندما بدأت تحس بالوميض الخارق

يمسك بخناقها جلياً وشيكاً، تزلزلت تحته في صبوة عارمة لا نهائية، ثم همدت فجأة حتى لقد ظن بأنها تتعرف على الموت لتوها، ثم عندما انتهى الأمر همست في أذنه بلا وعي:

ـ ناديني باسمي لأصدق أنني حية.

في الغد سألها عن اسمها الذي يجهله كي يناديها به عندما يمسك الموت بخناقها، عندئذ ضحكت الفتاة وقالت:

ـ لن يهمك الاسم بعد الآن لأنني سأسافر في الحال.

أعطاها المال اللازم لسفرها وودعها عند الباب.

منذ شبابه المبكر اعتنق الفكرة القائلة بأن الزواج يحيل الحب السامي إلى أحاديث تافهة، كما أنه ثنائية لا تنمو ولا تستمر إلا في ظل العداء للحرية الشخصية لدى الطرفين. وهو لم يكن مستعداً للمساومة على وظيفة مثالية ما أحب مثلها شيئاً آخر في العالم، مقابل شراكة تبعث على البلادة العقلية والشعور بالانحطاط الروحي. كما لم يكن مستعداً تحت أي ظرف لأن يرتهن جزءاً من حريته الشخصية لغير الرسائل وحدها. اكتفى بتصيد بعض النساء العابرات اللواتي كانت تقوده إليهن المصادفات، وكن يرحلن دون أن يخلفن في نفسه أي أثر أو أي ذكرى، ثم سرعان ما كان النسيان يتولى إلقاء أسماء من كانت لهن أسماء في قاع الذاكرة.

بهذه الروح الملكية المتخمة بنى علاقته مع رتيبة الأغواني. وبتلك القيود التي قيد نفسه داخلها تابع علاقته معها على ذاك النحو الطقوسي الغريب. لم تكن في نظره كما تبدو عليه امرأة واقعية

حسية تعيش الواقع بكل مصادفاته وتقلباته، إنما كانت كائناً سرابياً خارجاً لتوه من قلب الحكايات الخرافية ويعيش بين أناس أحياء. إنه يفقد الإحساس بوجوده عند لمسها، ولهذا لم يكن يعلق أهمية على الجانب الجسماني معها لكي لا يعكر صفو السراب. ولهذا أيضاً كان يرفض رفضاً قاطعاً أن ينتابه حيالها شعور مخادع بأنها مرفأ غرائزه الأخير، إنما الشراع الأخير المرتفع على صاريه الذي سيساعده على الإبحار فيما تبقى له من خريف عمره، لعله يموت وعلى شفتيه ابتسامة رجل يلهو.

غلبه النعاس وهو يحيطها بذراعيه، وآخر ما فكر به قبل أن يغفو هو قناعة تراءت له في ومضة وعي عابرة، بأن كل ما عاشه وكل ما خلّفه وراءه من أمجاد ذابلة لم يكن سوى أشياء سخيفة أمام هذه المغامرة الكبرى التي تبدأ يومياً بصوت هذه المرأة حينما ينطلق خدراً، مصقولاً، معلناً:

ـ أنا جاهزة.

2

ذعرت رتيبة من الإصابة بعدوى الجرب. لكنها بعد تفحص دقيق لكل أنحاء جسدها تبينّت أنها خالية من أي أثر من آثاره، فتنهدت وشعرت بالارتياح. علمت بالنبأ من جاراتها عندما سألتهن عن سبب الضجة والروائح الحريفة المنبعثة من حجراتهن فأوضحت لها إحداهن:

ـ إنها حالة عامة بسبب الجرب.

عند الظهيرة وصلت إلى البلدة عدة عربات شحن حكومية محملة بالطرود الطبية والأدوية الصيدلانية والمرشدين الصحيين بالإضافة إلى عربة تعقيم مغلفة تخفق فوق رفرافها الأمامي راية بيضاء في وسطها هلال أحمر. منذ ثلاثة أشهر تقريباً وطبيب مستوصف البلدة ينبه إلى خطر انتشار وباء الجرب في البلدة دون أن يصغي إليه أحد، لا لأن الأهالي لا يثقون بمعارفه الطبية المجربة، إنما

لأنهم لا يحبون تعريض أنفسهم لعار العلاج عنده من مرض معيب كهذا. بعدما هاله حجم الجائحة وخطرها اضطر إلى الاتصال بالهيئات الصحية العليا في العاصمة وطلب الإسعافات السريعة لمكافحتها والحد من انتشارها.

تمركزت القافلة في الساحة العامة أمام مبنى دار الحكومة. ونظرة واحدة على الحشود المتقاطرة كانت كافية لطبيب القافلة للإعلان عن وجود الوباء. فمن مجرد رؤيته لبعض الذين يأتون وهم يحكّون ويهرشون كالمصابين باختلاجات عصبية أعطى أوامره سريعاً لفريق العمل ببدء عمليات المكافحة.

طلب من الأهالي بمكبرات الصوت إخراج الأمتعة والفرش والثياب والأغراض ذات الاستخدام الشخصي ليتم تطهيرها بالمبيدات الحشرية وتعقيمها بالبخار. لبى الناس النداء بنشاط وسرعة غير معهودين، فما لبثت أفنية الدور والممرات وأرصفة الأزقة أن امتلأت بالأسمال والبطانيات واللحف والبسط والفرش وأواني الطعام. أدار عمال البلدية مضخاتهم اليدوية ووجهوا خراطيمها فوق الأمتعة المتكدسة فأغرقوها بوابل من مطر لبنيّ اللون كريه الرائحة. ثم انتقلوا إلى داخل الدور لرش الأبواب الخشبية والجدران والسقوف والمفروشات والأسرة المعدنية وشقوق الأرض. وفي الوقت نفسه نشر موظفون آخرون طاولاتهم الميدانية وسط الساحة وأخذوا يوزعون زجاجات المراهم والمطهرات والإرشادات الطبية التي ألحوا عليها حتى اهترأت حناجرهم. أعطوا تعليماتهم للجميع دون استثناء، للمصابين وغير المصابين، بعدم المصافحة أو الاتصالات الجنسية أو التحشدات العامة، كما نبهوا إلى إزالة شعر الجسد من أي بقعة كانت ودهن

الأبدان بأكملها بالمراهم، ثم يأتي بعد ذلك التعرض بالعري الكامل لأشعة الشمس لمدة ساعتين يومياً. وهكذا بين ساعة وأخرى تحولت البلدة الجرباء إلى بلدة عراة وأخذت تهب في سمائها وفي كل الأوقات نسائم رطبة محملة بروائح النفط والنفتالين والـ د. د. ت وزهر الكبريت.

بأسرع من الريح نهدت رتيبة إلى تعزيل البيت وتنظيفه بالماء والصابون. ثم جاءت بعمال الضخ وفرشت أمامهم الأثاث والشراشف والفرش والأمتعة بما فيها الملاعق والصحون، والثياب بما فيها الجوارب والسراويل لتضميخها بالمبيدات الحشرية والمطهرات. وبعد أن انتهت من كل ذلك استحمت في طست واسع وحلقت شعر الإبطين وتركت شعر العانة الذي لم تمسه قط منذ نشأ اعتقاداً منها بأن إزالته تخرج أنوثتها عن سجيتها الفطرية. ثم دهنت جسدها كله بالمراهم الدبقة وهي تكافح كي لا تفقد وعيها من رائحتها المثيرة للغثيان. فتحت النافذة على مصراعيها لتدخل أشعة الشمس اللازمة للعلاج، فدخلت في حزمة كثيفة استقرت فوق أرض الحجرة، ثم تمددت على ظهرها تستقبلها عارية وتحلم مطبقة العينين بالمصير المأساوي الذي يمكن أن تؤول إليه امرأة متقيّحة.

وهي ممددة بسكون مغمورة بأشعة الشمس وزهر الكبريت، شغلها تفكير مفاجئ فيما إذا كان أدهم أفندي بوست قد تمكن من دهن ظهره بمرهم الجرب بإحكام طالما أنها هي لم تتوصل إلى ذلك إلا بشق النفس. خطرت لها فكرة الذهاب إليه لمساعدته في التدليك لكنها تراجعت عنها في الحال، فرائحتها الآن لن تسره بالتأكيد.

كان يحدث أحياناً أن تشعر بأنفاسه وهي تلامس بشرتها في هبات ناعمة نشطة، فيتأثر قلبها بالانفعالات الحلوة التي تكمن وراءها. تقول له وهي تضرب الهواء بساقيها:

ـ لم أطلب منك هذا. إنك هكذا تدغدغني.

فيجيبها بيقين لا يتزعزع:

ـ إن لك هنا رائحة كرائحة النرجس الأصفر كأنك خارجة للتو من حقل زهور في الجنة.

وإذا تأملت نفسك جيداً فسوف تلاحظينها.

تضحك رتيبة من كل قلبها وهي تعلم أنه بدأ يهذي هذيان الحمى تحت ضغط كوابيسها:

ـ هذه من أوهامك. لا توجد جنة ولا زهور. كل ما في الأمر أنني مستحمة حديثاً بالماء والصابون.

الراديو إلى جوارها.. كلما انتهت أغنية تنقل مؤشره إلى محطات أخرى بحثاً عن أغنية جديدة تلائم مزاجها. لا تستطيع أن تعيش بلا أغاني الإذاعات. ومع بداية هذا اليوم الطويل هي أحوج ما تكون إليها. في سن المراهقة، أي قبل سنوات قليلة من الآن عندما كانت لا تعرف شيئاً سوى الضحك والتسلية مع الصديقات وقراءة الكتب العاطفية والسير في الشوارع والتألق بين الناس، كانت تصغي للأغاني التي تحبها كي تساعدها على أن تحلم. أما الآن وقد تقرر مصيرها بالعيش مع زوج شاب لم تعد تحبه، فهي لا تحلم ولا تفكر في شيء آخر. مجرد ذكريات سعادة متناثرة هنا وهناك تغفو في زوايا قلبها بحيث يصعب العثور

عليها دون مفتاح سحري، وهذا المفتاح هو أغنية أو لحن.

محنتها أنها تزوجته عن حب جنوني رغم معارضة ذويها ورفضهم. كان مدرس مادة الموسيقى في ثانويتي البلدة للذكور والإناث، وعازف الكمان في فرقة مدارس المحافظة الرسمية. فتنتها موسيقاه أثناء دروس الموسيقى عندما كانت إحدى طالباته، وعندما كان يشارك في الاحتفالات الوطنية المقامة في دار السينما أو الساحات العامة، وتحضرها هي لأجل رؤياه وسماع معزوفاته فقط. إقدامها الجريء ذاك على الزواج من شاب يصفه الجميع بالموسيقي المبتذل، أدهش الناس الذين ما كانوا يرون لها في خيالهم كفتاة جميلة تنتمي إلى عائلة معروفة، إلا مستقبلاً أبيض يمور بالرفاه والأناقة والحياة الرغيدة. لكن هذا حدث مثل بقية الغرائب التي تعج بها الحياة بسبب الحب والحب وحده.

منذ اليوم الأول لزواجهما عندما هم بها بطريقة يمكن أن تكون أي شيء آخر عدا عن أن تكون حباً، لم تتوقع حدوث أشياء حسنة معه في آتي الأيام. وبعد نهاية الشهر الأول عندما بدأ يشكو لها العقبات التي تقف في طريق وصوله إلى الإذاعة، وقلة المال التي لا تسمح له بتحقيق طموحاته الموسيقية، بدلت نظرتها للموسيقيين من أناس سرابيين يعيشون خيالاتهم فيسبحون في النهار داخل النور الزاهي، وينامون الليل ملء جفونهم النغم الحالم، إلى أناس فانين يعيشون ظروفهم ويخضعون مثل الآخرين لمفاجآت الواقع الصعبة ومشاكل الحياة التي تنوء بها أرض البشر. ثم مع مرور الزمن لم تعد تجد فيه شيئاً جديراً بها لأنه كان دائماً على نقيض أحلامها، وما فعلت الحياة المشتركة فيما بعد إلا أن تزيد من اتساع الهوة بينهما. فبالقدر الذي كانت تشتد فيه

أحلامها متطرفة في مثاليتها، كان زوجها يغدو عادياً إلى حد الفجيعة ويحمل كل تفاهة الواقع، على خلاف ما كانت توحي به موسيقاه في زمن مضى.

ذات ليلة وبعد أن روى لها دعابة فاحشة، استغل ضحكتها الخجولة وباغتها:

ـ هل تصغين إلي؟ أود أن أسألك سؤالاً..

رنت إليه بشفافية:

ـ اسألني أنا أسمعك.

وكمن يحضّر لجريمة محسوبة بأعصاب باردة سألها:

ـ أريد أن أسألك: هل تعرفين طريقة سهلة للحصول على المال؟ ليعيش المرء في هذا العالم البغيض يحتاج إلى النقود.

استغربت السؤال فسألته:

ـ أعرف هذا. ولكن لماذا تسألني هذا السؤال؟

أجابها:

ـ لأنني حقاً أريد أن أعرف ما إذا كانت لديك فكرة عن ذلك؟ أما إذا كنت لا تعرفين فأنا أعرف طريقة تجعلنا نستحم بالذهب في وقت قصير.

حتى هذه اللحظة لم تكن رتيبة متأكدة من فهمه تماماً فسألته في شك:

ـ كيف؟

انطلقت أغنية عاطفية لعبد الحليم حافظ شوشتها رائحة زهر الكبريت فبدت آتية من بعيد من عالم مفقود. أزعجتها الأبخرة المتعفنة فنثرت قليلاً من العطر حول أنفها ووضعت على وجهها منشفة ككمامة. ثم همدت كصنم فاتن تتفرغ بكل أحاسيسها لسماع الأغنية. لقد أغرمت بهذا الفنان عن بعد في وقت من الأوقات. حلمت به وأرقها التفكير فيه زمناً طويلاً. حضرت أفلامه كلها، وحفظت أشعار أغانيه كلها بألحانها، ولاحقت أخباره في المجلات الفنية والإذاعات وعلقت صورة على جدران حجرتها وفي طيات الكتب الخفية. أثارها على الدوام قلق عينيه المعذبتين وتعابير وجهه التي تحملٍ الكثير من الرقة الحالمة. وألقى صوته الدافئ على روحها ظلالاً من الرومانس البهيج فقدم لها حدائق مزدحمة بالعشاق وشوارعها بلا نهاية مزدانة بالضباب والشموع وأشواقاً مبهمة للمسة يد من تحب. هذه المزايا هي نفسها المزايا التي أعطت عازف الكمان مكانه العاشق المناسب لقلبها وهو يقلد ويعزف أغانيه.

عالم الموسيقى والأغاني ذاك، الذي أمدها بالحياة والحب والنار والنشوة هو العالم الذي تحسب حسابه الآن كعالم وحيد يلحق بها الأذى والألم ويحكم على روحها بالبلى. لقد أحبته بوَلَه ووضعت كل ما كان في حياتها من مشاعر رهينة بوجوده في هذا العالم. ومن أجله خيبت آمال شبان كثيرين في التقرب إليها. وباندفاعها العاطفي ذاك، مسح الغامض المفاجئ بسحره صوت العقل فبقيت غافلة عن الحقيقة إلى أن حان لها الوقت لإدراكها، حديقة مهشمة بورود ذابلة ومروج جرداء، هذا كل ما بقي من تلك الأيام المنسية، وإنسانة ميتة حية فاقدة الكبرياء والأحلام، مبددة الآمال والرغبات وتعيش بلا تفكير، هذا كل ما بقي منها

في ظل شخص مبتذل من رأسه إلى أخمص قدميه وكل ما في نفسه الطموح والتسلق إلى الأعلى وحب المال، وما تبقى من اعتبارات ليست سوى وسيلة للوصول إلى هدفه.

آنئذٍ انجلى لها الكشف مخلفاً وراءه إحساساً بصدمة غامضة، صاحت بصوت عصبي:

ـ عاهرة أليس كذلك؟ هيا أفصح عن نيتك. إن الأمر هكذا ليبدو جنونياً وكان الأجدر بك أن تخجل من نفسك.

رد عليها بلهجة حاسمة:

ـ حسناً ولكن هذا الجنون هو ما ينبغي لك أن تتفهميه.

أغاظها إصراره على الدناءة فرعدت قائلة:

ـ إني أجدك وقحاً أكثر مما كنت أعتقد. أنت شخص بغيض حقاً.

فجر عينيه في عينيها وقال لها مخرجاً الكلمات من بين أسنانه:

ـ في هذه اللحظة لا تهمني آراؤك وخير لك أن تصمتي.

نشرت الكلمات الحمقاء المبطنة بالتهديد غمامة قطنية سوداء حول عينيها. لم يتزوجها إلا لهذا الغرض إذاً. رأته بدلاً من ذلك شخصاً كريهاً مريضاً يتوهم أشياء مذلة وأفكاره مجبولة بالدناءة كما لو أنه لم يكن الشخص الذي اختارته يوماً قط. قاومت البكاء لفترة لكنها فشلت ثم انفجرت بالبكاء. دارت في أرض الحجرة في عاصفة غضب أعمى تخنقها. ركلت كل شيء موجود في طريقها بقدميها ورمته في كل اتجاه برميات تخلعت

لها جميع مفاصلها. وفي سَورة جنون اندفعت نحوه تضربه وتخدشه بأظفارها وتمزق ثيابه بأصابعها المهتاجة. وكادت تسقط على الأرض إعياءً لو لم تتمسك بطرف الطاولة. كان واقفاً على قدميه يرقب دمارها لا يتكلم ولا تند عنه حركة، كرجل أتقن مهنة تنظيم المآتم الفخمة إتقاناً تاماً، حتى إذا أرهقها الانفعال والصراخ استدارت نحوه وقد ارتسم على وجهها كل ما تشعر به من ألم ونفور، وقالت له بصوت مهشم متحدّ بخيط النحيب الحار:

ـ كنت بخير من دونك وها أنت تأتي لتسمم علي حياتي. ليتك تشعر بكل الألم الذي أشعر به الآن. اخرج من حياتي كلها فلم تكن تستحق ساعة منها. إنني أكرهك.

منذ تلك الليلة دخلت حياتها لعبة الميزان. وضعها في حفرة ووضع شرفها في حفرة أخرى وكان هذا الأمر أصعب. هجرها ولم يعد هناك ما يدل على وجوده في البيت سوى كمانه وأوراقه الموسيقية ورائحة عطره الثقيل. ثم قطع عنها المال والطعام وكل متطلبات البيت اليومية، حتى باتت تضطر لتسول الصدقات سراً من بعض صديقاتها أو جاراتها لتواصل بها العيش من جديد. فكرت بالانفصال عنه لكنها تراجعت حتى لا تصبح سخرية الجميع في البلدة. أما ذووها الذين قاطعوها منذ عشية زواجها السيئ ذاك، فلم يبق لها وجه تقابل به أحداً منهم، وكانت تفضل أن تموت ألف ميتة على أن تعود إليهم بكل ذلك الانكسار وتلك الخيبة المريعة. وهكذا سدت في وجهها كل الأبواب وبدأت قواها تتقهقر، وكل يوم يمر يدنيها بقسوة من اليوم الذي ستقول فيه كلمتها الأخيرة. وقد قالتها أخيراً، لم يكن الأمر صعباً وحسب، بل قاسياً ومشؤوماً أيضاً. وعندما تدقق في الذكريات

الآن، تعتبر ذلك اليوم الذي دانت فيه لخطط زوجها السيئة واللا أخلاقية من أسوأ أيام حياتها. اليوم الذي تستطيع أن تعد نفسها فيه إنسانة ساقطة ولن تستطيع أن تعود بعده نقية أبداً.

ـ سأفعل ما تريد. ولكن تذكر أنك هكذا تجتذب الشقاء لي ولنفسك.

بيتاهما متجاوران على الرغم من الفارق الكبير في المستوى المعماري لكليهما. كان يعتقد بأن جارهما العجوز ينام على ثروة ضخمة لن يتسع له الوقت لتبديدها. جاءته من وظيفته المرموقة وأسرته الثرية، ويملك بيتاً مكوناً من طابقين وحديقة ويعد بشرفاته الخارجية ذات القناطر والسطح القرميدي المحدب من أفضل بيوت البلدة قاطبة، ولهذا أطلقت عليه العامة قصر الأفندي وهو ليس بمستوى القصر. قال لها بأسلوبه الشيطاني في إدارة الحديث، إن الحياة المعاصرة لم تعد تحتمل الكثير من الشرف والصدق والقليل منهما يكفي للعيش، وإذا كان هناك إمكانية للعيش الرائع فلماذا العيش الرديء؟ ثم شرح لها خطته الرامية إلى سحب أموال العجوز بالتدريج عن طريق إغوائه ووقوعه في غرامها قبل أن تؤول بعد موته إلى أقربائه البعيدين أو تركات الدولة، وإذا استطاعت أن تحصل على ملكية البيت بموافقته وهذا وارد إذا تمكنت من سلبه عقله بفنونها، فلن تعدم الوسيلة للتعجيل في منيته عن طريق إنهاكه الجسدي المستمر في الفراش.

ـ لن تجدي صعوبة في ذلك. عجوز مثله قليل من الأنوثة يكفيه.

هكذا وجدت رتيبة نفسها فجأة مقحمة في قضية حقيرة خالية من النزاهة، وقبولها الأمر كان من أصعب الخيارات التي واجهتها في

حياتها، جعل كل شيء فيها أحمق ومواربا ومحبا للخطيئة منذ البداية.

قليلة هي المرات التي رأت فيها أدهم أفندي بوست، وما التقته وجهاً لوجه سوى مرات قليلة أخرى كانا خلالها يتبادلان كلمات المجاملة الاعتيادية التي تفرضها حقيقة كونهما جارين قريبين. التقته مرة عندما نسيت مفتاح بيتها في الداخل وطلبت منه إذناً بالعبور من فناء داره لتتمكن من هناك من الدخول إلى بيتها عبر باب خلفي مشترك بين الدارين، ومرة ثانية نسيت المفتاح أيضاً لكنها كانت تحمل أغراضاً كثيرة ساعدها في حملها. أما المرة الثالثة فكانت قريبة العهد عندما تناولت كمية كبيرة من سم الفئران تنهي به حياتها وجاء لإنقاذها.

رأت شبحه فوق رأسها وهي على حافة الموت والآلام تمزق أحشاءها. فتح فمها المتشنج المزبد ودفع بإصبعيه داخل حلقها، ثم كرر المحاولة بقوة أكبر فتقلص جوفها وتدفق في عدة جشآت متقطعة مصحوبة بقيء أصفر لطّخ يديه وثيابه. وطوال الليل عكف على مؤازرتها وتنظيف معدتها بالسوائل الحارة، ولم يغادرها إلا بعد أن طلب منها وعداً بألا تكرر محاولة قتل نفسها وإلا فإنه سيضطر إلى تبليغ الشرطة. وعدته مخلصة بأنها لن تكرر المحاولة بإشارة حزينة من عينيها.

وفيما بعد علمت أنه عندما سمع صراخها المتواصل الشبيه بصراخ إنسان يُسلخ حياً، حطم باب بيتها ودخل إليها لإنقاذها، وتلك كانت أول مرة في حياته يدخل بيتاً بلا استئذان.

أول مرة عادت فيها من زيارته في بيته وجدت زوجها يقظاً في

انتظارها، يروح ويجيء بتثاقل وهو لا يعرف كيف يخفي اضطرابه، وعندما أولته نظرة جانبية عابرة راعتها كمية البؤس والغيرة المترسبة خلف عينيه المحمومتين. ضل قليلاً في صحراء الحجرة بخطوات إنسان بدائي تخبط على الأرض ثم توقف عند الطاولة التي تتكوم فوقها حقيبته الجلدية وآلته ونوتاته الموسيقية في كتلة شوهاء. غلفها جميعاً بنظرة بائسة باحثاً عن معنى ينطوي عليه كل هذا الركام فلا يجده. فكك أزرار سترته ثم سحب ربطة العنق كمن بدأ يشعر بالاختناق. جلس على الكرسي القريب وترك وجهه يتدلى إلى الأسفل تستنزفه ذكريات مهينة.

جاءها صوته مضطرباً متعباً:

ـ لقد نام معك. هل تحبينه؟ لا تقولي شيئاً إذا كنت لا ترغبين.

من صوته القاحل تداعت إليها تصورات واضحة عن الجحيم الذي يتخبط فيه، فأذهلتها المفاجأة. إن الغيرة عند من هم في مثل وضعه هي شعور غريب وشائن. ومع أن حمى الضياع في أكثر وجوهها إثارة للشفقة كانت بادية عليه إلا أنه لم يستثر لديها ذرة واحدة من شفقة أو عاطفة. على العكس من ذلك، واجهته بجدار سميك من الصمت الصفيق والتجاهل الماجن، حيث استلقت على المقعد الطويل وأشرعت ساقيها فوق مسنده وأخذت تهزهما بحركة لاهية، ثم لم توله بعد ذلك نظرة واحدة.

رأت ظله يرتسم ضخماً مجنحاً فوق الجدار وهو يكرر السؤال بقلب لا يعرف الراحة:

ـ هل دخلت سريره عارية؟ لي الحق أن أعرف.

بدا لها عنيداً، وأكثر توتراً وأقل تحكماً بطباعه، فقدرت أنه خلال ساعات غيابها تلك كانت تعذبه الصور وظلمة الليل ورائحة شهوانية جافة منبعثة من ذلك البيت الهادئ.

ولا شك في أنه تجلد وتجنب أن يراها في خياله وهي تخفق بجسدها تحت غريمه العجوز كي لا تخنقه الصور وتلك الحشرجة في صوتها وهي تخاطبه بنجوى الحب والشهوة العارمة. خرجت من صمتها وصرخت به متوخية ألا تكون فظة معه إلى أقصى حد:

ـ سلوكك هذا لا يطاق. ليس لك الحق في أن تسألني عما أفعله أو لا أفعله هناك، وإذا كنت ستتحدث بهذه الطريقة فسأذهب إلى النوم.

فيما بعد سيعترف لها أدهم أفندي بوست بأنه كان دائماً يرى أن الحياة أجمل وتغدو ساحرة عندما يجري فيها شيء غير متوقع، وذاك اللقاء كان توقعه مستحيلاً بالنسبة لأمثاله. قالت له:

ـ هذه المرة لم آتِ لأني نسيت المفتاح. إذا كنت تريد أن تعرف ما الذي يعنيه وجودي هنا فانظر واحكم بنفسك.

وكان هذا شعوراً جديداً عليه شوش مداركه فاعتقد بأن ما يراه وما يرن في أذنيه لا يتعدى أن يكون يقيناً متخيلاً. وبعد أن خرج من هيمنة سحرها اختلط عليه الأمر فما عاد يعرف أن يقدر تقديراً صحيحاً نواياها المحيرة. لقد نزعت ثيابها عن بدنها قطعة وراء قطعة بأسلوب أقل ما يقال عنه إنه ساذج وغر ويشبه عادة خلع الثياب قبل الإيواء إلى النوم، فلم يتوهم لحظة بأن دوافع هذا

الاسترسال العاطفي ليست الرغبة تجاه عجوز لا يحمل هواه أي بارقة أمل، إنما محاولة لامرأة تريد أن تثبت للآخرين بأنها مخلوقة انتفت لديها كل قدرة على مقاومة الأقدار. وكان على حق.

ـ أخشى إن تأخر الوقت أن يفتقدك زوجك.

ـ لا عليك، لن يغضب زوجي ما دمت أعود إلى البيت وجيوبي ملأى بالمال.

باحت له بكل شيء، وروت له قصة كل شيء مذ بدأت تشعر بأنها تقوم بعمل مخزٍ وتجر معها شيخاً له كل هذه العواطف النبيلة إلى مشكلة لا يحمل عنها أدنى فكرة، تنتهي به وبها إلى الغموض. تفهم القرار الخاطئ الذي اضطرت لقبوله ولم يكن تعساً. قال لها الفكرة التي تكونت في ذهنه للتو:

ـ عازف الكمان على حق. فأنا خصم يسهل التغلب عليه. وليس هناك طريقة أفضل للإيقاع بي من امرأة جميلة.

ثم ملأ لها درج طاولته برزم المال ودعاها لتغرف منه يومياً قدر ما تشاء دون استشارته ودون أن يطلب منها شيئاً آخر بالمقابل سوى أختامه تلك.

وهكذا بدأت رتيبة ترى العجوز بأكمله رؤيا أدق. قامته النحيلة وشعره الأشيب المكتمل ووجهه ذو النظارة الذهبية الشبيه بعصفور حزين. بالإضافة إلى البيريه الزرقاء التي يرتديها في كل الأوقات والقميص الأبيض الذي بلا قبة، والبنطال الخفيف بحمالات مطاطية على الكتفين، كل ذلك يعطي الانطباع بأنه شخصية من

تلك الشخصيات النادرة التي تصلح للتراجيديات السامية. ثم يأتي بعد ذلك سلوكه المخملي المتمدن وتهذيبه الشديد اللذان ينمان عن روح أرستقراطية تحمل النبالة الفطرية قدراً لها فما تزيد أن تعطيه شيخوخة محيرة وجذابة.

وخلافاً لما كانت تتوقعه باتت تذهب إليه لا مبالية وضحكتها تسبقها. ثم تلتقيه في هياج صاخب مستثارة بلا اتزان. ويكون الوقت مبكراً على أي شيء آخر عندما تبدأ بخلع ثيابها عن بدنها وتستلقي فوق السرير منادية:

ـ أنا جاهزة.

عازمة على أن تجعل الروح تتألق أمامه صريحة ومرتبة كالجسد وفي توافق تام.

لا سعياً لإرضائه إنما لتتمعّن هي جسدها وهو يتوهج بأسلوب عينيه النقي في رؤية الأشياء ويرتعش تحت شغب أختامه التي يحاول بها سبر أغوار معانيه الخفية. فسعادتها تكمن في أن يحبها هو لا في أن تحبه هي، فالطريقة الوحيدة لكي ينسى المرء نفسه هي وجوده مع شخص آخر يحبه. ومستسلمة لهذا السحر الغامض الذي يشيعه حولها باتت تشعر بالحنان يعود أليفاً للزمن وبالطفولة تتجسد في مشاعرها ووجهها المهموم كأوضح ما يكون. كان يطعمها بيديه ويتمصص السوائل عن أصابعها ويمسح فمها بمنديله المعطر الخاص. وذات مرة هبطت من السرير في طريقها إلى حوض الاستحمام فانزلقت قدمها تحتها والتوى كاحلها بألم، ودونما انتظار رفعها أدهم أفندي إلى الأعلى وحملها على كتفيه ورأسه بين فخذيها ولديه من الثقة بمعجزات الحب ما يجعله يقيم

دهراً تحت ثقل جسدها الممتلئ بالدفء والصبوة الفتية. تمسكت رتيبة برأسه وتأرجحت فوق كتفيه وضجت بساقيها فوق صدره وهي تموت ضحكاً. سألها لماذا تضحك؟ أجابت:

ـ ما كنت أتصور أن يأتي يوم تعاملني فيه كطفلة. لم أتخيل أن يحصل معي هذا.

قالت ذلك وهي لا تستطيع أن تتوقف عن الضحك، فأجابها:

ـ لأنك لست سوى ذلك. وعليك أن تألفي هذه الفكرة ما دمت معي.

في البداية عندما رأته يحدق بها وسط غابة أختامه والصمت يسود في الأعماق، اجتذبها ذلك التعبير الخرافي البادي على وجهه وظنت بأنه يعدّها لنوع من العبادة على الطريقة الوثنية. لكنها مع مرور الوقت اكتشفت أنه إنما يدون على جسدها بأختامه تلك، معاناته الخفية وابتكارات مخيلته المدهشة وتخريفات أخرى، يسميها بنفسه، عن وظيفته السابقة ليبدد بها أحزانه الناجمة عن شيخوخة مدونة بالعزلة والانطواء ولا ينتظرها مستقبل. وكانت في الواقع ممتنة له بتلك التأملات المغرمة بجسدها وهو ينظر إليها كمعجزة، وبما يبديه من شغف بشتى التفاصيل المتعلقة بجمالها وهي تتبع نشاطه الزخرفي بيقظة، فآلت في النهاية إلى اعتبار ذلك كله لعباً حلواً مسلياً يلوّن أيامها الباهتة وتغذي به غرورها الأنثوي وميلها الفطري للتسلية الأزلية.

لا شيء يعبر عن حالتها الروحية الآن أكثر من رائحة زهر الكبريت الحريفة هذه، ضاقت بها ذرعاً وهي لا تتصور أن هناك

ما هو أشد منها إيحاء ومدعاة للذكريات السيئة، فنهضت واتجهت نحو الحمام لتتخلص منها بالاغتسال.

من عادتها قبل العودة من بيت أدهم أفندي بوست أن تستحم هناك في حمام أنيق له مغطس من البورسلان. يحممها ويرغي الصابون ويليّفها وهو يبتسم ابتسامة بطيئة وحزينة للخراب الفظيع الذي يحس به وهو يرى زوال أختامه ونقوشه وهي تتصدع وتتفكك تحت دفقات الماء، ثم وهي تتساقط من جميع أنحاء جسدها في جداول بنفسجية على الأرض. وسرعان ما يعود الجسد شيئاً فشيئاً كما كان نقياً شفافاً نضراً عابقاً برائحة النرجس الأصفر. لكنها الآن لاحظت أن رائحة زهر الكبريت مستوطنة في خلاياها أكثر مما قدرت رغم أنها فركت بشرتها بشدة حتى تبقعت بالاحمرار. وعلى هذا وضعت في حسابها عدة أيام من الانقطاع عن عجوزها الملهم تقضيها بالسباحة في مغاطس مياه حارة ومعطرة حتى يزول كل أثر من آثار رائحة زهر الكبريت تلك. ثم تذهب إليه بعد ذلك فلا تصدم يقينه المتخيل عن رائحة أزهار النرجس الموهومة تلك، وحرصاً على إحساساتها هي حتى لا تكف عن الشعور بأنها تتوهج وتنمو تحت نظراته وتنهداته اللاهبة وهي تنقل إليها حرارة دمه وصور تأملاته المدهشة.

3

اليوم الذي يمر دون أن يرى فيه رتيبة يشعر بأنه يوم يقربه إلى حتفه. لقد أغلق عينيه عن ضوء النهارات لأنها ليست موجودة فيها. فأن تغيب يوماً كاملاً يغدو البيت فارغاً وقاحلاً ومرهقاً للقلب، وحتى الهواء يضج احتجاجاً على غيابها. لقد غيرت مجرى حياته واختلفت الأمور كثيراً عما كانت عليه في الماضي حين كان يستيقظ وحيداً مهجوراً لا يملك خطة ليومه، ويلازمه الضيق من كل شيء فما ينفك يشكو من الطقس الرديء والنهارات الجافة الطويلة والمشي في البيت بين قطع أثاث واقعية مضجرة للغاية. ثم تأتي ساعات القيلولة القاتلة التي يمضيها في سقاية زهور الحديقة أو في الجلوس الكئيب في فناء الدار أو بالاستلقاء من غير نوم في الكرسي الهزاز في الشرفة، فيحس بالزمن يمر خاوياً هشاً مطلياً بالقلق والتعاسة كأنما يجري هناك في البعيد وليس هنا.

في تلك الفترة لم يدرك الأهمية القدرية التي نجمت عن بعد نظره الوظيفي وحرصه الدواويني إلا عندما اكتشف في مخزن بيته في الطابق السفلي اثنين وعشرين كيساً بريدياً ضخماً ملأى جميعها بالرسائل المنسية أو التائهة التي لم تصل إلى أصحابها. رسائل مهملة تجمعت لديه في مركز البريد إما بسبب انتقال المرسل إليهم إلى العالم الآخر، أو بسبب خطأ في عناوينهم، أو بسبب إهمال دوائر البريد الأخرى.

كان يتفاخر بأنه أقدم موظف بريد في البلدة. بدأ عمله على آلة البرقيات في بداية عهد الفرنسيين، ثم بمضي الزمن فرضت عليه ظروف العمل أن يكون متعدد الاختصاصات والمهمات. يرسل البريد الصادر ويستقبل البريد الوارد ثم يستقبل ويرسل برقيات البريد الحكومي، ثم يوزع الرسائل والطرود والحوالات البريدية حسب عناوينها، حازماً في كل أمر رافضاً لأي خطأ أو تهاون يصدر عن موظفيه، محتفظاً لنفسه بمهمة مهر البرقيات وطوابع المغلفات والشمع الأحمر الذي يوضع على الطرود بأختام المركز الرسمية وتاريخ إرسالها. هذه المسؤوليات الكثيرة غالباً ما كانت تستغرق منه وقتاً يمتد إلى ما بعد الدوام الرسمي بساعات. فكان يتفانى في سبيلها بحماسة وطيب خاطر نابعين عن قناعة وجدانية شكلت شعار حياته الوظيفية هي أن أخبار الناس الحسنة والسيئة لا تحتمل التأخير. وكرجل ذي أخلاق مهنية أصيلة كان يستقبل في بيته خلال أوقات استراحته المسائية زواراً وزائرات أميين يطلبون منه كتابة رسائل ملحة إلى ذويهم الغائبين أو قراءة رسائل وصلت منهم، فما تمنع يوماً عن إسداء خدمات من هذا النوع لأي أحد كان.

في البداية احتفظ بالرسائل التي لا تصل إلى أصحابها في

مستودعات البريد، لكنه عندما اكتشف ذات يوم أنها ترمى في زوايا زرية وتتكدس في أكوام مع النفايات بحيث يمكن العثور بينها على رسائل قرضتها الصراصير والفئران ورسائل أخرى بلا مرسل وبلا مرسل إليه لأنها خسرت أغلفتها، أشفق على أصحابها المجهولين ونقلها إلى بيته لعلهم يظهرون فيما بعد ويسألون عنها. ملأها داخل أكياس بريدية ذات نسيج خشن ووضعها بين أكياس الكراكيب والأمتعة في غرفة خلفية قليلة الاستخدام، ومع مرور الزمن ومواظبته على هذه العادة ما لبثت الغرفة أن غصت بها بعد أن وصلت إلى ذلك العدد الكبير.

لم يعد إليها إلا بعد تقاعده عندما وجد نفسه بلا عمل ويكاد يقتله الفراغ. اختار ركناً خالياً من الغرفة وضع فيه طاولة وكرسياً وحسّن الإضاءة، ثم نبش الرسائل من أكياسها وفتحها جميعاً وقرأها جميعاً في أوقات متفرقة من فترات القيلولة وساعات المساء الضائعة.

مع الرسالة الأولى هزّه إدراك مفاجئ لمفارقة محيرة، هي أنه طوال حياته التي مهر فيها آلاف آلاف الرسائل بأختامه، واستقبل آلاف آلاف الرسائل المختومة بأختام مراكز البريد الأخرى، لم يرسل باسمه رسالة واحدة لأحد، ولم يستقبل باسمه رسالة واحدة من أحد.

ولذلك عندما جلس محاطاً بأكوام تلك الرسائل، حرص على فتح أغلفتها بعناية واحترام بالغين، ثم عكف على قراءتها بروح وعواطف المرسل إليهم وكأنها تخصه. أفكار وعواطف وأسرار ومصائر مختلفة تجمعت في تلك الرسائل لم يكتب لها أن تقرأ

بعيني غيره وقد لا يكتب لها أن ترى النور بعده. قرأها كشاهد صامت على أسرار تلك المخلوقات البشرية وهو لا يني يتساءل إن كان قدر لها أن تعدل مصائرها فيما بعد.

في تلك الفترة التي انقطعت فيها رتيبة عن المجيء إليه بسبب الجرب، عاد إلى قراءة تلك الرسائل تزجية للوقت ولكن بهدف مختلف. فكر أن يحصي المسرات والأنباء السارة الموجودة فيها ويقيسها بالآلام والأنباء السيئة ليرى في أي اتجاه سار خط الحياة خلال العقود المنصرمة أكان صعوداً أم هبوطاً بدلالة تواريخها. فكرة مبتكرة لم يسبق له أن فكر فيها من قبل، وكان سعيداً باكتشافها ولو أنها ستحمل إليه الكثير من العناء.

ولكنه ما إن شرع بعمله القياسي هذا حتى اعتراه شعور بالذهول، إذ إنه وصل إلى الرسالة الخمسين ولم يجد في تلك الرسائل التي اختارها عشوائياً سوى التعاسات والخيبات والشكوى بما يكفي العالم كله كما قدر. قال لنفسه: الآلام والأحزان موجودة في الحياة على الدوام، والخيبات كما يبدو هي ما ينتظر كل كائن ولد كي يموت. شعر بأنه بحاجة إلى نزهة خارج الدار، فنهض وليس في ذهنه سوى المقهى العالي الذي كان يمضي فيه أغلب أوقاته منذ بداية عمله الوظيفي.

كان أفضل مقهى في البلدة، ويختلف عنها جميعاً لوجوده في طابق علوي فوق مجموعة من المتاجر والمحلات. يقع في مركز المدينة ويطل بنوافذه الزجاجية العريضة على الساحة العامة. في زمن الانتداب الفرنسي كان مخصصاً لسهر الضباط الفرنسيين وإقامة حفلاتهم التي لم يكن مسموحاً لأحد من السكان المحليين

بحضورها ما لم يكن يحمل بطاقة خاصة أو دعوة رسمية. بعد ذلك أي بعد الاستقلال، بلغ المقهى ذروة مجده إذ ظل مقتصراً على رواد من نخبة مجتمع أهل البلدة وبعض الأشخاص المميزين من الفئات الشعبية حفاظاً على عراقته ومكانته التاريخية. يلتقون فيه لقراءة الصحف وتبادل الأحاديث العامة ومناقشة آخر الأحداث السياسية المحلية والعالمية. ثم في نهاية السهرة يجمعهم الإصغاء المشترك لأغاني أم كلثوم شاغلة عصرها وسيدة قلوب جميع الناس.

كان بينهم محامون وموظفون ومعلمون وسياسيون من أحزاب اليمين واليسار، ومثقفون وشعراء لم تكتب لهم الشهرة، وخياطون مهرة ومحاربون قدماء، وبحارة قطعوا نصف العالم على ظهور السفن ثم عادوا ليرووا ما شاهدوه.

لأول وهلة عندما جلس إلى طاولته المعتادة، شعر بأنه يعود إلى تلك الأيام البعيدة. في مثل هذه الساعة كانوا يتقاطرون إلى المقهى ويتحلقون حول طاولاتهم ويطلقون العنان لطيب نياتهم فما يلبث المكان أن يمتلئ بالهياج المدوِّم والصور الغريبة والنكات المضحكة ويختلط الحقيقي بالزائف في دوامة حقيقية. أناس أوتوا فكراً قلقاً وميلاً قوياً للاطلاع والتحدي، وامتلكوا القدرة على الحديث عن ذلك الحنين إلى المطلق في كل شيء ولو بمزيج من السذاجة والطيبة والريبة أحياناً. يتحدثون عن الحروب والصراعات الدولية والأحداث والقوى التي تقود شؤون العالم وتفرض الفائزين، بقوة الإحساس نفسها التي يتحدثون بها عن تسلياتهم حول الشراب والأغاني وكرة القدم وعن كل شيء وعن المرأة ذاتها. كان لهم طرق مختلفة في التفكير، وكل منهم

على خلاف مع الآخر، وخلال نزاعاتهم الفكرية والسياسية غالباً ما كانوا يتشاحنون ويتشاتمون بأمازيح بريئة ويتهاجون شعراً. تلك الأساليب كانوا يطلقون عليها صفة التطعيم ضد العنف ليعم السلام، بينما هي في الحقيقة مثيرات كانت تجعل من حياة المقهى أكثر اتساعاً وأكثر ترفاً وحرية.

لقد عايشهم أدهم أفندي، بوست عن قرب، وأصغى إليهم واحداً واحداً بانتباه، ولم يخطر في باله يوماً أن يصنف وجهات نظرهم بين الخطأ والصواب، وعندما كان يُسأل: أنت مع من أدهم أفندي؟ كان يجيب جوابه الدائم عن قناعة لا عن مراوغة: أنا مع الجميع. ذلك أنهم كانوا جميعاً في نظره على اختلاف آرائهم يحملون رسالة واحدة صالحة لكل الأزمنة، هي أن أحدهم ليس بحاجة إلى أن يكون أو إلى أن يبدو على غير ما هو عليه في الواقع، لأنه أعطى كل قلبه لأوهامه.

بهذه الفكرة انتزع أدهم أفندي نفسه من ذكرياته. وما إن ألقى حوله نظرة إمعان حتى شعر بأنه يعود من مكان غاية في البعد وأنه الآن موجود في المكان الخطأ. لقد تغير الزمن والناس تغيروا. تلك القامات والوجوه وعبارات الكلام كلها غابت وضاعت مع أصحابها الذين غيبهم الموت أو غيبتهم العزلة الاختيارية ولم يبق منهم في الذاكرة سوى ظلال الكلام كما لو أنهم كانوا أشباحاً، أو وهماً من الأوهام. حل محلهم حشد يضم كثيراً من الأشخاص الفانين والهامشيين الذين يبدون كأنهم يعيشون الحياة تنكراً خالصاً وليست حياتهم الحقة على الإطلاق. أمزجة ناعسة ووجوه غائبة مرتابة، والإرهاق يعلو مظهرهم المهترئ، وكل شخص يبدو شخصاً معيناً وبعيداً عن الآخر. يجلسون إلى طاولاتهم أسرى

ذكرياتهم أو نعاسهم بلا صوت إلا صوت بقبقة الماء داخل الحجرات الزجاجية لأراكيلهم لكأنهم بذلك يقولون كلمتهم الأخيرة حيال ما يجري في الخارج. ذلك الخارج الذي لفظهم بقسوة بعدما أصبحت السلطة الاشتراكية ملموسة ومجسدة في الشوارع والمدارس والمكاتب، وفي شعارات الجدران وبنادق الحرس القومي.

الأمور معقدة من جميع النواحي ولدى الناس متاعب كثيرة مع حزب السلطة الجديد. ولذلك آثر أغلبهم الانزواء في الظل والانضمام إلى قافلة الكآبة، بدلاً من الوقوع تحت رحمة عالم يزداد فوضى وقوة وكل ما يحدث فيه كما لو أنه عن عمد يهدف إلى جعل الآخرين حمقى أو ضيقي الأفق، أو حقودين.

حتى المقهى الذي كان مهوى الأنظار على مدى عقود خلت، اضمحل هو الآخر في غضون سنوات قليلة فلم يبقَ فيه مجرد بقية من مجده الغابر. هذا المكان المتعالي الذي كان يفخر برواده وبلمعان طلائه المتجدد وبطاولاته التي من المرمر وبفناجينه وكؤوسه ذات النقوش الذهبية، أخذت أرضيته تتسخ وكراسيه تتهالك وفورميكا طاولاته تتفسخ وتحول إلى ألواح متعفنة ممتلئة بتراب لزج، وجدرانه أخذت تتشقق وتغطيها طبقات سميكة من الانتفاخات الرطبة التي تصحب عادة المباني التي تحتضر احتضاراً بطيئاً. شيء ما تغير في الحياة وكل شيء حدث بسرعة. ولكن المحزن في الأمر أن الكائنات البشرية تبلى أكثر من الأشياء وتختفي أسرع.

استغرق في تأمل كئيب لا يتحدث إلى أحد ويشرب قهوته

وحيداً. حتى إذا راح يهيمن عليه شعور بأنه بات ينتمي إلى عالم من الضجر الذي هو في اعتقاده أحد أقنعة الموت الصعبة والحزينة، نهض عن كرسيه ومضى عابراً أرض المقهى بانحناءة كتفين تزيدان من مظاهر شيخوخته، وهو على يقين بأنه لا يرتاد هذا المقهى إلا لأنه لا يعرف مكاناً آخر يذهب إليه.

خفف عنه في فترة الانتظار تلك، مجيء فتى الديك الرومي إلى بيته. فتى في السادسة عشرة من عمره تعرف إليه قبل عام تقريباً عندما جاء يبحث عن ديكه في حديقة الدار. وعندما تأكد له أنه لم يقفز إلى الحديقة بقصد السرقة ألحقه في خدمته وأوكل إليه مهمة جلب أغراضه اليومية من السوق وتأمين خادمة لتنظيف البيت مرة في الأسبوع لتظل حجراته مشرقة ولامعة بالنظافة والترتيب. وكان يزوره بين حين وآخر كصديق رغم الفارق الكبير بين عمريهما، ليسليه ببهلوانيات ديكه المثيرة للدهشة والإعجاب.

كان فتىً متشرداً بأسمال. انقطع عن المدرسة في الصفوف الأولى وتفرغ كلياً لهوايته المفضلة في تربية الطيور. درّب طيوراً من كل صنف على اللحاق به والطيران فوق رأسه والحط على كتفيه. أما الحمائم التي يربيها في حظائر برجيّة على سطح بيته فقد كانت من الكثرة بحيث باتت أعدادها عصية على الإحصاء، وكلما طارت أسرابها في سماء البلدة تشكل فوق الأبنية سحابة واسعة من الظلال المتحركة. وآخر اهتماماته كان ذاك الديك الرومي.

لم يكن ديكاً عادياً بشكل من الأشكال. فبالإضافة إلى إتقانه التحليق العالي والبهلوانيات المدهشة التي يقوم بها بإيعازات من الصفير، وتقليد أصوات الطيور والحيوانات الأخرى، يفهم عليه

أكثر من إنسان. رباه فرخاً وزيّنه بأساور الخرز والشباشيل الحريرية وقطع المرايا الصغيرة، ثم دهن ريشه بألوان طاووس حتى غدا جوقة من الألوان والزينات والغرابة. كان يلعب معه كرجل آلي وينطقان بالطنين، وعندما يمران في الشارع ويسمعان أغنية أو عزفاً موسيقياً منطلقاً من إحدى المحطات الإذاعية، سرعان ما كان يقفز إلى مدخل المتجر فارداً جناحيه ليرقص على ألحان الأغنية بقائمتين رشيقتين يصعب تصديقهما.

كان يرافقه في جميع تنقلاته ويشاركه في صحن الطعام ويقاسمه فراش النوم. ومرت فترة كان يصطحبه فيها إلى دار السينما، لكن الديك الأخرق غالباً ما كان يفلت من يديه ويقطع الطريق إلى الشاشة السحرية المضاءة قفزاً على رؤوس المشاهدين تجذبه إليها الخيالات الناطقة. وهناك قريباً من الشاشة كان يقف بمواجهة الممثلين ويؤدي حركاتهم التي يقومون بها معبراً ليس فقط عن أفكارهم التي يتبادلونها بل عن هواجسهم أيضاً. ضاق به المشاهدون بعد أن أصبح وجوده بينهم مزعجاً وسبباً من أسباب الفوضى، خصوصاً أثناء تلك المشاهد التي تحوي نساء شبه عاريات، فأعطى صاحب الدار أمراً بمنع دخوله إلى الصالة. ومنذئذ هجر فتى الديك الرومي السينما بلا أسف.

في الفترة الأخيرة بدأ الديك يضيق بالأماكن المألوفة التي يحل بها وأخذت تجمح به غريزته إلى الهروب والتنزه وحيداً في أماكن مجهولة لم يطرقها من قبل. وكان الفتى يلحق به إلى أماكن لا تخطر على بال. ولكثرة المطاردات التي بدأ يفرضها عليه أصبح يجيد تسلق الأسوار وصعود الشرفات والقفز فوق الأسطحة والتسلل إلى داخل المطابخ وحجرات النوم. وخلال تلك

المطاردات النهارية والليلية للديك استهلك أضعاف ما يحتاج له عادة من أحذية وصنادل، ورأى أشياء يقوم بها البشر فهمها وأشياء أخرى لم يفهمها. فذات مرة رأى رجلاً بشارب عريض يجلد زوجته بالسوط، وقبل أن يمضي خارجاً علقها من طرف فستانها الخلفي على مسمار في الحائط. ومرة أخرى قاده الديك إلى فناء دار قديمة رأى في زاويته امرأة تدخن الأركيلة ويخرج الدخان من فتحة سروالها، فخاف وهرب مع ديكه. وغير بعيد عن هذا البيت رأى من نافذة إحدى الحجرات الواطئة فتاة مستلقية على سريرها تحاول أن تغفو بقوى غامضة، وكانت تتدلى من عارضتي السرير المعدنيتين زجاجات فارغة معلقة بخيطان وكلما اهتز السرير انبعثت منها قرقعة شبحية، فخاف أيضاً وهرب مع ديكه قبل أن يتحطم السرير بالفتاة. وهكذا توالت المفاجآت وتوالت جهوده المضنية للهروب منها مع ديكه وكل مرة كانا ينجوان بأعجوبة. فذات ليلة اضطرت امرأة مذعورة فوجئت بوجوده في مخدعها إلى أن تلبسه ملاءتها النسائية لتهربه خارج البيت أمام عيني زوجها درءاً للفضيحة.

وفي هروب ثان اضطر أن يتخفى داخل خزانة حتى الصباح خوفاً من أن يوصم بعار السرقة ولم يكتشف إلا في ساحة المزاد العلني بعدما نقلت الخزانة إلى هناك للبيع. أما الهروب الثالث فكان من بائع جوال يعلق على عارضتي حماره صوراً لممثلات أميركيات، نقرها الديك وأتلفها وأكل قسماً منها. لحق به الفتى في اللحظة المناسبة قبل أن يقضي عليه الرجل بخيزرانته وهرب به إلى قمّيم حمّام.

في البداية لم يكن يهم الفتى ما يفعله الناس وما لا يفعلونه، ولم

يكن يشغل تفكيره سوى الوصول إلى الديك. لكنه بعد أن أخذ يرى من شقوق النوافذ والأبواب نساء عاريات يتحممن في حجراتهن الداخلية أو يتبولن في المراحيض أو ينتزعن شعور سيقانهن وآباطهن بعجينة السكر والليمون، وأخذ يسمع في هدأة الليل تلك الحشرجات الخرساء والأنفاس الثقيلة اللاهثة لأزواج يتطارحون الغرام، بدأ يضل طريقه كما لو أن ما يهمه لم يعد الوصول إلى الديك بل الاستمتاع بروائع الطريق البسيطة والمسلية. وبدا كما لو أن قوة رهيبة أخذت تقتلعه من عالمه الطفولي ليراقب عالم الكبار بدهشة وبراءة. وكما لا يمكن أن يحدث إلا في الخيال، أخذ الديك يتناغم مع هواجسه الجديدة هذه، فكلما أطلق صيحة شبيهة بصافرة باخرة متهيئة للإبحار، كان الفتى يعرف ما هو بصدده الآن، وكان غالباً ما يعثر عليه أمام امرأة عارية يقف في نافذتها محدقاً فيها بعينين وقحتين ثابتتين وعنق متصلب ملويٍّ إلى جانب وذيل لا يكف عن الاهتزاز.

ـ هيا قل لي ما الذي فعله هذا الديك الشقي بالأمس؟

بهذا السؤال كان أدهم أفندي بوست يبدأ لقاءه اليومي مع فتى الديك الرومي. وكان الفتى يجهل مجيء يوم يضطر فيه إلى استعادة تلك المغامرات أمام أحد. وما كان يعرف أهمية تلك الأسرار التي يستكشفها خلال مطارداته للديك إلا بعد أن تعرّف إلى أدهم أفندي الذي يعتبره من صنف نادر وأعظم رجل في البلدة. وقد اكتشف وهو يروي له قصص الديك أنه بحاجة إلى سماع أشياء جديدة وموهوبة تترك انطباعاتها عليه، وأن الأشياء كلما كانت خارجة عن المألوف وبراقة كلما اشتد إعجابه بها وإصغاؤه إليها.

وتلك كانت طريقة أخرى ينقل خلالها إليه آخر الأخبار والأحداث التي تجري في البلدة والتي بات يستطلعها خصيصاً له مبتدئاً في روايتها بالأهم فالأقل أهمية. ومع أخبار فتى الديك الرومي هذه كانت لدى أدهم أفندي القدرة على أن يكون جزءاً من حياة البلدة وفي الوقت نفسه منفصلاً عنها. فلا يفوته تحذير الفتى الدائم من أن ينقل إليه أخباراً أو قصصاً يلفقها خياله. وكان الفتى يقسم على صحة الأخبار التي يكتشفها بنفسه.

الحدث الأهم الذي نقله فتى الديك الرومي لأدهم أفندي في ذلك العصر كان متعلقاً بالعجوز مزنة. ففي تلك الأثناء خرجت مزنة من عزلتها المقدسة وأعلنت بمعزل عن كل غرور اعتزامها على رؤية ليلة القدر مرة ثانية بعدما أصيبت بخيبة أمل من حدوث المعجزة الإلهية على يديها في المرة الأولى بسبب غفلتها عنها. وقالت لجاراتها في زهد وإنكار ذات، إنها لن تطلب شيئاً لنفسها من ملائكة تلك الليلة التي تلبى فيها الرغبات والأمنيات إنما ستطلب الخير والرزق للجميع.

هذا الإعلان الجديد أثار في البلدة الرصينة جواً من المرح يصل أحياناً إلى حدود الهزء والسخرية. فالبلدة التي فوجئت بواقعة غير معهودة أول الأمر، لم يجر اعترافها بالمحاولة الثانية، وتمنى أكثر الناس أن يرأف الله بالعجوز ويعيدها إلى جادة الصواب لتتابع عملها الذي أنفقت معظم حياتها في سبيله وهو تغليف الشوكولاه. أما مزنة نفسها فقد تابعت حياتها برفقة الملائكة وكانت في معزل عن كل هذه الأقاويل. فما إن يراها الناس تعبر الشوارع مستقيمة الظهر بعد انحناء وإحدى ذراعيها على قلبها والأخرى مرتفعة إلى الأعلى كشراع مبحر من البركة والابتهال،

حتى يدركوا أنها ذاهبة في سبيلها إلى حقلها السعيد.

أما هي فقد كانت تقول لكل من جاء يطلب منها مازحاً أو جاداً نقل أمنياته إلى تلك الليلة الموعودة، بكل تفان وثقة:

ـ لا تخبروني بأسراركم ورغباتكم. اكتبوها على الورق أو القماش لكي لا أنسى أحداً. كي لا أتعثر في الكلام من شدة الرهبة. ومنذ دخولي إلى ذلك البهاء الرباني سأطيرها في الهواء والنور، فهي لن تسقط هناك على أرض ولا شك بأن من سأكون في حضرتهم يعرفون القراءة والكتابة.

كان فتى الديك الرومي يتحدث وأدهم أفندي يفكر وقد أولى الأمر أهمية خاصة. بالنسبة له لم يأخذ بصدق الرؤيا منذ البداية. أعادها إلى طبيعة العجوز مزنة المأساوية التي أورثتها خيالاً مريضاً وجعلت الحياة تجري وراءها. وأما تفسيرات المكتبي مصطفى الجانودي فأولَها على أنها ليست أكثر من آلاء باطنية نجمت عن تبحره المستديم في عوالم الكتب الصفراء القديمة ويحاول دائماً أن يضفي عليها صفة القداسة الدينية. بالمقابل لم يكن يجرؤ على نكران ليلة القدر أو الاعتقاد بأنها خرافة ما دامت مثبتة سماوياً بنص قرآني. لكنه بعد تفكير عميق توصل إلى نظرية أراحت ضميره بشكل مذهل مفادها أن ليلة القدر حقيقة مجازية موجودة كل لحظة في حياة البشر، وهي عبارة عن مليارات من شرارات الأحلام البشرية الصغيرة التي يتحقق بعضها وبعضها لا يتحقق وبعضها الآخر ينتظر التحقيق. ولو لم يكن الأمر كذلك لما كان لأحلام البشر أي معنى.

أولى أمر مزنة الجديد أهمية خاصة لسبب آخر. فقد هزه وبهره

إدراك مفاجئ بأن عزمها المعلن على نقل رسائل الناس إلى تلك الليلة السماوية المنتظرة. حالة تشبه حالته إلى حد بعيد. تلك الحالة التي قضى أغلب سني عمره في سبيلها وهي نقل رسائل البريد. مع فارق بسيط هو أن بريده كان بين الناس والناس، في حين أن بريد مزنة هو الآن بين الناس والعناية الإلهية. ليستا متشابهتين وحسب، إنما هما متكاملتان أيضاً وتربطان ما هو دنيوي بما هو سماوي في تيار شامل للحياة وتشكلان معاً اللغة الواحدة التي يتكلمها العالم وهي لغة البريد. فكر هكذا وتوصل إلى حقيقة هيمنت عليه بشكل ساحق هي أن روح العالم مكتوبة من هذه الكلمة ولولا وجود البريد لما كان هذا العالم موجوداً.

حقيقة بسيطة اكتسبت بفعل إشراقة داخلية معنى فلسفياً عميقاً، فبدا له وكأنه للمرة الأولى يكتشف أهمية أختامه البريدية تلك. وأنه عندما يطبع بها بشرة رتيبة النقية فإنه لا يرمي إلى التعبير عن هواجس وعادات قديمة تملأه وحسب، إنما لكي يكسب تلك الأختام الميتة من بشرتها الحية انبعاثاً دائماً وتميزاً أفضل، فتستمر روح هذا العالم بالنسبة له فلا تمر حياته في لحظة سكون أو عطالة تكون أولى علامات الفناء.

صر الباب الفاصل بين الدارين مشبعاً بالبهجة. من صريره يعرف أدهم أفندي أن القادم رتيبة. تدخل بسرية وهدوء ثم تصعد السلم الحجري الخلفي بخفة فراشة مائية، وتعبر الممر ذا القناطر وسط رنين لطيف لعقود وأقراط متدليات ووقع حذاءين يمسان الأرض مساً خفيفاً. ثم بعد ذلك تدخل حجرتهما المشتركة المضاءة بإتقان مسرحي ليبدأ ذلك الجزء الخفي من الحياة الذي لا يهدأ فيه الحنين ولا تنطفئ فيه الأصوات حتى وقت متأخر من الليل،

توالي هي فيه التعرف إلى آخر ابتكارات مخيلته المدهشة، ويوالي هو فيه الإصغاء إلى ضجيج الجسد تحت وطأة ما اتفق من أختام هي أشد إثارة في ضراوة عبثها وتمادي فضولها.

ملأت المكان بحضورها الطاغي. وجه شبيه بالنظر إلى سماء مقمرة، وعينان واسعتان كثيفتا الأهداب راعشتا الظلال مجنونتا الخضرة والبريق هما الطريق إلى كل أرجاء جسدها. قال لها وهو يكبح جموح القلب:

ـ كنت أفكر فيك طول الوقت.

أجابت برقة:

ـ وأنا مسرورة لأنني سمعت صوتك من جديد.

بعد ثلاثة أيام من الغياب توهم أنه يرى شبحها فاعتراه شعور بالحاجة إلى طمأنة نفسه مرة أخرى بلمسها للتأكد أنها موجودة. والمرأة الطائشة المتسلطة عندما أحست بارتباكه وعجزه عن التحرر من سحرها، أمسكت طرف فستانها ورفعته إلى الأعلى بحركة استعراضية كما لو أنها تمسك بذيل طاووس، ثم أطلقت ضحكة سخية أضاءت المكان وقالت:

ـ إنك لا تتوهم. أنا حقيقية أمامك. المسني لتتأكد.

أنار وجهه هدوء ملائكي وأشار بيده نحو إناء زجاجي صفت داخله باقة ورود ضخمة وقال لها:

ـ وجدت المكان كئيباً فجئتك بهذه.

لقد أعد نفسه لمناسبة الجرب بهذه الطريقة. تقدمت رتيبة وأغرقت أنفها داخل تويجات الورود، وقالت:

ـ هذا ما أنا بحاجة إليه أكثر من أي شيء آخر. ثلاثة أيام من العفونة كادت تقتلني.

ثم لزمت الصمت وهي تتابع هز الورود بأناملها ليفوح عطرها في كل أنحاء الحجرة. من نغمة الصوت الوانية أدرك أدهم أفندي أنها معتكرة المزاج قليلاً، وأنها تكافح شيئاً غير مزعج لكنه يمنعها من الشعور بالراحة التامة. حتى بعد انتقالها إلى السرير كانت حركاتها متكلفة وضحكاتها كسلى، وكانت شفتاها تختلجان بين حين وآخر وتترسب حولهما ظلال شاحبة متقلبة. كان يود أن يحدثها عن اكتشافه لتلك الحقيقة البسيطة عن أهمية البريد في جعل العالم كلاً واحداً ومن خلاله نستطيع معرفة كل شيء عن حياة البشر لأن كل شيء مكتوب في الرسائل، لكنه عندما وجدها في تلك الحالة أرجأ حديثه إلى وقت آخر. سألها:

ـ إنك لا تفكرين هكذا دائماً. هل أنت واثقة أنك لا تخفين عني شيئاً؟

انبطحت على بطنها وبرز ردفاها العاريان فوق الفراش. ووضحت له الأمر في انفعال هادئ:

ـ حياتي فارغة تافهة ولا أحب زوجي. إنه أحمق ومدّعٍ ونذل. وهذا تعرفه.

عاد قلبه إلى مكانه فما من شيء يبعث العزاء في نفسه مثل محاكاتها.

ـ أعرف هذا. إنما أسالك عن أشياء تقلقك ولا أعرفها.

بالأمس مزقت كل ما لديها من جوارب نسائية وحمالات صدر وسراويل داخلية حنقاً وغيظاً من زوجها. في العادة تشتري ثيابها وأدوات زينتها من «نوفتيه آبان» السيد المشهور بتفننه وهوسه بمغازلة زبوناته بمن فيهن العجائز. يتلمسهن فوق أثدائهن وتحت تنوراتهن وعلى أردافهن وهو يبسط البضائع أمامهن أو يقيسها على أجسادهن. يساعده في ذلك تكدس الملابس في زوايا المتجر والظلمة التي يغرق فيها لوجوده داخل قبو لمبنى السرايا القديم المطل على الساحة العامة.

وهي في طريقها إلى المتجر صادف دخولها الساحة العامة وصول عربة البلدية التي يجرها بغل محملة ومثقلة بعشرات جثث الكلاب النافقة. ففي ذلك اليوم بدأ عمال البلدية بشن حملة على كلاب البلدية الشاردة بعدما أصيب شخصان عضهما كلب مسعور بداء الكلب. سارعوا إلى ذلك بعدما تكاثرت بأعداد هائلة وبعد أن لقن الجرب أهل البلدة درساً لا ينسى. كانوا ينادونها ويصفرون لها صفرات مخادعة ثم يلقون لها طعاماً مسموماً على شكل مكعبات لامعة. تزدردها الكلاب بنهم ثم لا تلبث أن تتداعى قوائمها وتتهاوى على ظهورها بأشداق مفتوحة يغطيها الزبد. ومن منها ينازع أطول من المدة المقررة كان عمال البلدة يجهزون عليها بضرب رؤوسها بالهراوات.

تذكرت رتيبة تجربتها المماثلة مع الموت وكادت تموت رعباً. لم تعد المسافة إلى المتجر تقدر بعدد الأمتار بل بعدد الجثث النافقة التي تنقل إلى العربة برميها في الهواء. اجتازت ما تبقى لها من

مسافة بلمح البصر ودخلت المتجر وهي تحس بسائل حار يتدفق من مثانتها ويحرق فخذيها. وظلت هناك عدة دقائق ترتجف خوفاً وحرجاً لأنها أدركت أنها تبولت في سروالها. أصدرت شهقة حارة تلخص بها لحظات الموت التي عاشتها قبل قليل، وشكرت قدرها لأن تلك الفظاعة حدثت لها قبل دخولها المتجر بقليل وليس في الساحة العامة أمام مرأى الجميع، وإلا لتأذت طوال حياتها من الخجل والعار. نظفت نفسها براحة واطمئنان وراء غابة الفساتين المعلقة على مشاجب. وطلبت من صاحب المتجر آخر تشكيلة من الملابس الداخلية وسروالاً جديداً لترتديه. قدم لها آبان السيد سروالاً عاصفاً اعتبره آخر صيحة في عالم الأزياء. رفعه في الهواء إلى مستوى النظر وأخذ يقلبه بأصابع خبيرة ومداعبات رقيقة، ويشد مطاطه بحركات استعراضية موحية، وقال:

ـ كما ترين إنه يصلح ليكون تاجاً لملك.

سروال ضيق شفاف له زخارف كثيرة وتخريمات لا تحجب وراءها سوى القليل من أسرار المرأة الخفية، وعلى جانبه الأيسر صورة لتفاحة حمراء مقضومة قضمة واحدة فقط.

لم تقل رتيبة لأدهم أفندي كل ما حدث معها في حقيقة الأمر لأنه كان مريعاً. لكنها روت له حادثة الكلاب لتوحي له بأنها تكبدت مقابل الحصول على ذلك السروال الذي أبدى إعجاباً ساذجاً لرؤيته عليها، عذاباً غير المال. ولتقول له في النهاية إن الحياة في هذه البلدة أصبحت قاسية وموحشة والإقامة فيها باتت تجلب لها كابوساً جديداً كل يوم.

في مثل هذه الحالات كان أدهم أفندي يجد نفسه مدفوعاً

لانتشالها من ثوب الضيق الذي تغزله حول نفسها ويعكر صفوها. وكثيراً ما كان ينجح في ابتداع عبارات حوارية لامعة يضعها في نهاية الحديث كختم يوضع في نهاية خطبة طويلة. هو نفسه بسبب المضايقات التي باتت تواجهه في الشوارع بات يخرج ويدخل عبر الشوارع الأقل ارتياداً. لكنه قال لها بإقدام مرح:

ـ هذه المضايقات موجودة دائماً ولا تخلو منها الحياة في أي زمان أو مكان. أما هذه البلدة التي تشتمينها، فأنا أشكرها في الصباح وفي المساء لأنها صنعت امرأة بهذا الجمال.

طبيعتها مزاجية، أبسط الأشياء تعكّرها وأبسط الأشياء تعيد إليه صفاءها. اقتربت منه حتى كادت أهدابها الراعشة تلامس وجهه، وكان لها عندئذ وجه يسبح في بحر من الضياء المشع، وسألته مبتسمة:

ـ أتمنى لو أستدلّ على طريقة تجعلني أشعر بكلامك على أنه إطراء أو تقول أشياء جادة؟

أجابها ببساطة:

ـ أنا أقول ما أشعر به.. وهذه هي الحقيقة..

ضحكت ببساطة أيضاً، وقالت وأنفها لا يزال ملتصقاً بأنفه:

ـ الحقيقة الوحيدة هي أنك لست سوى أحمق وأنا لست سوى ساقطة. ولكن ما دمت بحاجتي إلى هذه الدرجة فسأحاول ألا أموت.

في تلك الليلة سحق تويجات الورود على صدرها وختمها بعصارتها الملونة بدلاً من حبر الاصطمبة. وتلك كانت أول مرة تعود فيها إلى بيتها دون اغتسال.

4

استقبل أدهم أفندي بوست النبأ الجديد وهو يتأرجح على كرسيه الهزاز في شرفة بيته الداخلية، بابتسامة بعيدة تعمّد أن تكون غامضة ومحيرة. نقل إليه النبأ فتى الديك الرومي كما هي عادته دائماً وقال له، إن هناك شائعة تقول إن هيلانة بائعة ماء الورد المشهورة وضعت حفيدتها الشابة داخل مقصورة مغلقة، ومنذ شهرين تقريباً وهي تعرضها عارية أمام زبائن معظمهم من الفتيان، يشاهدونها من خلال كوة ضيقة مخصصة لهذه الغاية. وبالطبع تتقاضى مقابل ذلك مبالغ كبيرة من المال لن يمر وقت طويل لتجعل منها صاحبة ثروة ضخمة. أصغى إليه بانتباه ومرت فترة صمت سأله بعدها:

ـ لماذا تأخرت بإبلاغي بهذا الأمر؟

أجاب الفتى:

ـ لأنني لم أكن واثقاً منه، وأنا لا أحب أن أنقل لك خبراً غير موثوق.

سأله أدهم أفندي مجدداً:

ـ وهل أنت واثق منه الآن؟

استجمع الفتى نفسه ثم حاول أن يقول شيئاً ما كان يود قوله:

ـ أجل لأنني رأيتها بنفسي.

أطلق أدهم أفندي ضحكة مرحة وقال:

ـ طالما أنك رأيتها بنفسك فالشائعة صحيحة إذاً.

كان الفتى صادقاً وقد زار المقصورة بنفسه فعلاً. أقامتها هيلانة في فسحة رملية على شاطئ البحر تبعد عن آخر بيوت البلدة من جهة الجنوب مسافة ثلاثة كيلومترات تقريباً. والمكان محاط بصخور متفاوتة الضخامة وبجدول ماء يشح صيفاً وتحف بضفتيه أشجار صفصاف ودلب عملاقة ونباتات معترشة كثيفة. وكانت المقصورة عبارة عن هيكل مهترئ لحافلة ركاب طويلة انتهى استخدامها وانتزعت منها آلاتها وعجلاتها ومقاعدها وألقيت بين الخرائب.

جاءت بها هيلانة مقطورة بثلاثة بغال واتخذت بعض الخطوات التي تجعلها صالحة للسكن. أصلحت ما فسد من معدنها، وأغلقت نوافذها المفتوحة بألواح خشبية ثابتة بعضها له رتاجات، ثم طلت الجدران والسقف من الداخل والخارج بدهانات زاهية متعددة الألوان ووضعت داخلها فرشاً وأغطية للنوم وعُدداً للمطبخ

والطعام. ومنضدة ومرآة وكل ما يلزم من أدوات الزينة لامرأتين.

عند حلول الساعة العاشرة مساءً تبدأ هيلانة وحفيدتها استقبال الزوار. تدخلها إلى مقصورة ضيقة معدّة داخل الحافلة وتقفل عليها الباب. ثم تجلس هي على كرسي صغير بلا مسند قريباً من كوة الفرجة، وفي حضنها صندوق خشبي في وسطه شق لإدخال النقود.

تنادي الفتيان المحتشدين على طرف الساحة واحداً بعد الآخر فيتقاطرون وفي أيديهم نقودهم. وفي حال قدوم زوار جدد كان عليها أن تعيد على مسامعهم ضرورة الالتزام بالوقت الذي يحدده إلهامها، والتقيد بالتعليمات الصارمة بعدم محادثة الفتاة داخل المقصورة وعدم مد الأيدي من خلال الكوة، وعدم القيام بأي حركة نحو النصف السفلي يقصد منها الاستمناء أو التلذذ. وفي الداخل كانت الحفيدة تتعرى على ضوء الشموع الخافت وتقدم عروضها بحركات موهوبة بناء على إشارات جدتها التي توقعها بأصابع يدها على جدار المقصورة من الخارج والشبيهة بنقط وشحطات مورس للتلغراف.

لقد حددت هيلانة أجراً معيناً عن كل جزء من أجزاء الجسد يرغب الزائر في رؤيته من خلال كوة المقصورة، وكذلك أجراً معيّناً عن المدة الزمنية الإضافية التي يرغب المفتونون بقضائها في المشاهدة، ومن الطبيعي أن يكون للأجزاء والأوضاع الأكثر إثارة الأجر الأعلى.

بدأ أدهم أفندي بإنشاد الشعر، وعندما يبدأ انشغاله بالشعر يدرك فتى الديك الرومي أن وجوده بات غير مرغوب فيه، تركه غائصاً

في كرسيه مع أفكاره ومضى ولكن ليس قبل أن يلاحظ أن حركة الكرسي أخذت تزداد اهتياجاً تحته.

خشي أن يكون النبأ الإباحي قد أثار في داخله زوبعة حنين ليست كباقي الزوابع زادت من تعاسته. فالفتى يعلم ما كان الجميع يعلمه أن مأساة حياة أدهم أفندي كانت دائماً في خلوها من أي امرأة، فهو لم يتزوج قط ولم تعرف عنه يوماً علاقة مشبوهة بامرأة. ومع أنه كان يحاول جاهداً كي لا يبدو شخصاً تعساً أمام الآخرين، إلا أن أكثر الناس لم يروا في مظاهر سلوكه هذه روحاً تقية بل سجناً للغريزة الطبيعية مبعثه الغرور العائلي الذي فصله عن نساء البلدة جميعاً. ولا شك أن الفتى اكتشف أو هكذا خيل إليه، خلال تلك الفترة التي عايشه فيها طبيعة المناورات التي يقوم بها ليظل محتفظاً بأبهة مجده القديم وليجعل من العيش دون امرأة أمراً ممكناً. ذات يوم تجرأ وسأله لماذا لا يفكر بالزواج الآن. وكان جواب أدهم أفندي واضحاً في ذهنه حين قال: إن الزمن غادره كآخر شيء يمكن التمسك به. وإن فكرة الزواج في هذه السن المتقدمة باتت غير مجدية. هذا الخطأ عاش مسيرته الوظيفية كلها لا يكاد يحس بالندم عليه، لكنه بعدما حكم عليه بالتقاعد الأبدي وغدا بلا رسائل وبلا مراجعين وبلا طوابع وأختام بريدية، بدأ يحس به ويدرك بأسف أنه لم يعد يملك الوسيلة لتغيير ما حدث.

لم يرو له ما فعله الديك آخر مرة لهذا السبب، ولسبب آخر هو أن الفتى كان يحرص دائماً على مراعاة مشاعر العجوز فلا يتلفظ أمامه بتفاهة ولا يورد في قصصه تفاصيل يعتقد بأنها خالية من الحشمة. هذه المسافة حافظ عليها باستمرار وما خرج عنها إلا

في مرات قليلة كان يفرضها عليه العجوز نفسه. وما حدث معه في ذلك المساء كان سره وسره وحده ولن يقوله لأحد لأنه كان مخزياً وعديم النزاهة. وذلك بالنظر لما كان يمتلكه الفتى من حساسية شديدة تجاه الموضوعات الأخلاقية وخصوصاً ما يتعلق منها بالنساء.

فجأة سمع ديكه يطلق صيحات مذعورة من جوف حجرة تقطنها امرأة وحيدة لم يعرف عنها سوى اسم عانس الدمى. تقدم نحو النافذة وألقى نظرة إلى الداخل. وجد العانس تطبق على الديك وتحتجزه بين ذراعيها وعلى وجهها أمارات مرح شيطاني. قالت له:

ـ لن أعطيك إياه. تعال أنت وخذه بنفسك. اقترب.

وأمام إصرارها قفز من النافذة وتقدم نحوها بخُطى بطيئة متوجساً مما تبيّته في رأسها من نوايا في كل خطوة يخطوها. وعندما وصل إليها نحّت الديك جانباً وقالت له ضاحكة بمكر:

ـ لن أعطيك إياه بسهولة. عليك أن تفكر بطريقة أخرى لتأخذه مني. حاول.

وبفضول أكثر منه شعور بالجزع راح يراقب مناوراتها للاحتفاظ بالديك، والديك بين ذراعيها يمد منقاره إلى فتحة فستانها ويفتح زراً بعد الآخر عن صدرها العاري. لم يجرؤ على الشك في البداية. وكل ما فعلته حتى الآن لا يبدو له أكثر من نية لامرأة ضجرة تحاول أن تتسلى وتلهو. لكنه ما إن مدت أصابع يدها إلى بنطاله بحركة مباغتة ودستها بين مفرق فخذيه، حتى بدأ يتعرف

على اللعنة التي حلت بها وأخذت تديرها. أمسكت ما كانت تبحث عنه وشرعت تداعبه بحركات ذات أبهة ساحقة وتنهدات حارة فيما المنخران الدقيقان اللذان تتردد فيهما أنفاسها بصخب كانا ينفتحان ويرتجفان في توتر مخيف. أحس بأنه يطحن تحت وطأة رؤى معيبة لا تحتمل، وبأن تلك المرأة بدأت تثير في نفسه إلى جانب الشعور بالخطيئة، شعوراً آخر بفرح عارم وتسلية دموية جريئة. فهمت المرأة حيرته وهو يصارع عصيانه، فصبت الكلمات في أذنه همساً:

ـ أرأيت؟ إنك لن تستطيع أن تأخذ الديك إذا لم أعطك إياه أنا.

عند هذا الحد فقد انتباهه وشح سمعه، ومنقاداً لغريزته شيئاً فشيئاً ما لبث أن حيّد توجساته الخفية من انتهاك المحرمات جانباً، وانصبّ كل همه بانتظار أن تتوج المرأة جهودها اللذيذة هذه باختراع ملك عليه لبه. استأنفت المرأة معركتها الصماء الطائشة وهي تشده باعتصارات عنيفة حاذقة ساعية به إلى هوى طاغ، حتى إذا رأته يتفكك بين يديها متشبعاً باللذة ويكاد يتبخر ويختنق بلهاثه، أوقفت غزوها العاصف على نحو مباغت وقبل أن يزدهر ببرهة قصيرة من الزمن بالنشوه الغاشية. استغرقت في تأمله بروية جليدية، ثم أعطته الديك وهي تقول له بصوت مشبع بالرذيلة:

ـ هذا سيجعلك تتذكرني دائماً. وفي المرة القادمة إذا زرتني فسأدعك تنام مع امرأة.

لقد تجاوزت السابعة والثلاثين من عمرها ولم تمسها يد رجل ولم يقترب منها إنسان، رغم أنها تعتبر في عداد الجميلات. كانت صانعة دمى قماشية ماهرة. بدأت هوايتها هذه عندما

كانت أجيرة خياطة نسائية، فكانت تجمع قصاصات الأقمشة من النفايات وتصنع منها أشكالاً ومجسمات فنية لا تمثل موضوعات محددة لكنها تفتح أمام الناظر تأويلات مطلقة السراح. وما إن امتلأت بها زوايا البيت حتى باتت الزائرات يشعرن بأنهن مدعوات للمشاركة في وليمة مع الأشباح. بعد ذلك تفرغت لصناعة دمى الأطفال من أرانب وطيور وقطط وكلاب ودببة وزرافات. وكل دمية تحمل علامة فارقة من هواجسها الفنية على نحو من الأنحاء. وفي المرحلة الأخيرة من عملها اتجهت إلى صناعة دمى الكبار التي تزين بها غرف الضيوف والصالونات في المنازل. فابتدعت بخيال جامح أنماطاً بشرية تكاد تكون ناطقة عن حالات لا تحيط بها العين المجردة. رجال ونساء بوجوه ذات تقاطيع شديدة الغرابة مع ملابس أنيقة وقبعات ومناديل مطرزة وأحذية لامعة وحقائب ومظلات تضفي عليها مزيداً من الغموض والغرابة. راجت مبيعاتها في البلدة، ثم امتدت شهرتها إلى المدن الكبرى فأخذت تزورها وسيطات تجار يتخاطفن دماها ويحصلن منها على أرباح طائلة.

كان النور يسطع في غرفتها حتى الصباح. وكانت الدمى تخرج من بين أصابعها قطعاً من الروائع الفنية بالأحجام والأشكال والألوان كلها. وما كان لأحد أن يتخيل يداً إنسانية يمكن أن تكون أفضل من يدها لمثل هذه الصناعة التي جرّت عليها الكثير من المآسي وجعلت منها عزباء مدى الحياة. فمنذ البداية انتشرت شائعة تقول إن بيتها مسكون بالأرواح المرجومة. وقيل عنها إنها تحادث دماها وتنطقها بأصوات مسموعة وتمارس معها في الليل أموراً شيطانية تخفيها تحت غطاء طقوسها الفنية الغامضة. وأشاعت بعض المطلعات على بواطن الأمور أنها تحتفظ لنفسها

بدمى رجال ونساء صنعت لهم ولهن أعضاء جنسية بارزة بالحجم الكامل تعوض بها حياتها الخفية الخالية من ملذات الجسد الحقيقية. وزادت أخريات بأنهن شاهدنها تدهن ثدييها بالألوان المختلفة وتطبعهما على القماش لتأتي رسوم أزيائها بكل هذا الجمال والغرابة.

هذه الشائعات كانت تأخذ طريقها إلى الأذهان بقوة إلى حد تحاشتها فيه النسوة والفتيات تطيراً وتمنعن عن زيارتها خشية أن تخيط لهن بدماها السحرية مستقبلاً سيئاً. وأما الشبان فقد ابتعدوا عن طريقها لأن أحداً منهم لم يجد مبرراً واحداً يسوغ له المخاطرة بنفسه بمغامرة الزواج من ساحرة. وبالمقابل هيمن على العانس شعور تدريجي بأن جميع من تعرفهم بدأوا يصبحون غرباء عنها، فما عادت ترى إلا وهي جالسة تنظر إلى ما وراء الأشياء بعينيها اللتين من لونين مختلفين، لا يرافقها سوى كآبتها وتلك المخلوقات الغامضة المحكومة بالتقطيع الأبدي أثناء احتفالاتها الهلوسية.

تصرفها ذاك ما كان يمكن لفتى الديك الرومي أن يعيد أسبابه إلا إلى الحرمان العاطفي الذي ترزح عانس الدمى تحت وطأته. ومن المؤكد أن الأمر عندما يفكر به يبدو له إزعاجاً مخزياً لا أكثر، وكلما طافت حوادث ذلك اللقاء الحار في خياله، كانت صورة تلك المرأة تتجمل في الذاكرة، وما قامت به يتضاءل استهجانه له ليصبح وهماً احتفالياً من تلك الأوهام التي تنتابه عادة في الأحلام الجميلة وكلما تذكرها تصيبه بخدر لذيذ آثم لا يمكن إلا أن يحبه.

لم يفكر بزيارتها مرة ثانية قط، وقد بات على يقين بأنها خططت للنوم معه في المرة القادمة رغم كل شيء، بعدما وجدت فيه كما يبدو الفتى المناسب لرغباتها المكبوتة. فكر بدلاً من ذلك أن يبحث لها عن رجل يتزوجها بعقد رسمي من بين ركاب الحافلات القادمة من بيروت أو دمشق وتعبر البلدة باتجاه مركز المحافظة ناحية الشمال. فرغم صغر سنه كان موهوباً بإبداء الشفقة تجاه الآخرين. وفيما يخص هذا الأمر بالذات إنما أراد أن يسير على خطا أدهم أفندي الذي قام بهذا الدور في وقت من الأوقات وجعل منه الرجل الأكثر شهرة والأكثر تمايزاً بين رجال البلدة جميعاً.

ففي السنوات الوسيطة من وظيفته تحول أدهم أفندي إلى رجل اجتماعي يعنى بالشؤون العامة وقضايا الناس في البلدة، لأنه ما كان يرى ما يمكن أن يصنعه بيوميات كئيبة غدت فيها أوقات الفراغ كثيرة، وانتهى أخيراً إلى قبول دور الخاطبة الذي تقوم بأدائه النساء عادة مكرساً له الجهد والمال وتاريخه الشخصي في ظل قناعة بأن الإنسان يموت عندما لا يحتاج إليه أحد.

يزحف إليه عشاق متيمون لتذليل العقبات التي تواجه زواجهم، أو طلاب زواج ليس لهم آباء، أوْ لهم آباء منبوذون، يتوسطونه بالوكالة عنهم، أو لإعطاء أعراسهم صبغة رفيعة المستوى.

وكان يندر أن يمر أسبوع لا يكون لديه التزام ما يتعلق بمبادرته الاجتماعية هذه. حتى لقد درج الناس على اعتبار الأعراس التي لا تحمل بصمة من بصماته على هذا النحو أو ذاك هي أعراس ناقصة. أما هو فعند كل زواج يتم كان يلقي خطبة قصيرة يصب

فيها وابلاً من التهاني والتمنيات بالسعادة على رأس الزوجين، ثم يعود إلى منزله ليواجه الصورة القديمة الأبدية لرجل وحيد غارت من حياته كل أسباب المباهج.

ليس لهذا السبب تخلى عن هذا الدور. ولم يتخلّ عنه لأنه إحدى سخريات قدره كما قدر الناس. وكرجل وطّد نفسه دائماً للتضحية لم يتوقف عن أدائه عن تعب كما قدر آخرون. توقف عنه لسبب قاهر عندما طلب منه المحافظ شخصياً أن يكف عن هذا العمل الواطئ الذي لا يليق بمدير مركز بريد في زمن التحولات الكبرى. وذكّره بأن السلطة الحالية تعوّل كثيراً على انتصارها في الحرب على الرجعية والتقاليد البالية بأي ثمن وفي جميع نواحي الحياة، إذ لا يمكن صنع المستقبل بناء على ذكريات سيئة. ثم حدثه كمن يحمل مصير العالم على كتفيه ويحميه من الانهيار عن ضرورة البحث عن زمن خارج الروزنامة. معتبراً هذه المظاهر جزءاً من العهد القديم المتفسخ الذي يسعون إلى هدمه وتغييره تحت شعار تحرير المرأة.

قبل أدهم أفندي الأمر كموظف مثالي خدم رؤساءه طيلة حياته بالنظام والطاعة وتعود أن يصطنع في قبول آرائهم مظهر الإذعان ولو أن له أسباباً كثيرة من عدم الرضى عن ذلك. لم يكن قادراً على أن يحقد على أحد، لكنه أحس إحساساً حاداً بتفاهة المحافظ وبخطر تلك النوازع السلطوية التي تندفع في قوة ضارية للتحكم بمصائر الناس وتتسع لتشمل حتى أسرة نومهم. أراد أن يقول له إن العيش في ذلك الماضي لم يكن بهذا السوء الذي تتحدثون عنه، وعندما تحاولون تحطيمه لأنكم تريدون أن تصنعوا تاريخاً آخر، فإنكم بذلك تحطمون إحدى ساقَي الحياة، وما هذا

إلا نذير بأننا نقف على أبواب كارثة محققة. ظلت الفكرة تجري في خاطره حتى اللحظة الأخيرة من وجوده في مكتب المحافظ وخرج دون أن يفصح عنها. لقد رافقته في الماضي لعنة الاستسلام للواقع حتى لو تعين عليه أن يعيشه مريعاً، والآن أضاف إليها لعنة أخرى هي أنه ما عاد يجرؤ على قول ما كان في زمن آخر يقوله.

ـ ماذا حدث لك الليلة؟ ما الذي حملك على أن تنقلب إلى شيطان هكذا؟ حاذر أن تترك علي أثراً ما.

قالت رتيبة ذلك وأطلقت ضحكة نادرة الصفاء، والهواء ينتزع من بين أسنانها رائحة شوكولاه عطرية. انتظرت قليلاً ثم عادت إلى ضجعتها وأضافت مستدركة:

ـ لا أهمية لذلك بالنسبة لي. تابع كما يحلو لك.

عندما وصل بطعنات أختامه إلى خميلتها الشائكة شعرت به يطيل المكوث هناك ويحوم بأختامه حولها أكثر من المعتاد. واصل عمله عابثاً بجلدها وشعيرات خميلتها وهي هاجعة مستسلمة لنزواته وهواجسه التي تجهلها تماماً. أغمضت عينيها وأخذت تتفحص في خيالها كل حركة صادرة عن أصابعه الندية وهي تطوف في إحساساتها الدقيقة بمرح بطيء ينطوي على خداع لذيذ مكتوم. حتى إذا غدا الإحساس أكثر دفئاً وأشد نعومة قصف شيء ما في داخلها وتسربت إلى مفاصلها وكليتيها رعشة شهوانية أوقفتها على الفور. وفي برهة قصيرة من الزمن استطاعت أن تعود من ذلك الشعور الطاغي وأن تعدل جسدها بارتعاشة لذيذة محتفظة بيده مفتوحة بين فخذيها، وتصيح:

ـ ماذا حدث لك الليلة؟.

فجأة اضطرب أدهم أفندي في ارتباك وانتزع نفسه من غربتها. في تلك الغيبوبة من النشوة وهو يقتفي آثار التغضن بلمسات رقيقة حساسة، مرت الصور في مخيلته، مما خلخله وجعل أصابعه تنقبض فوق المكان الدافئ برجفة تائهة. وما ظنته رتيبة بداية هجوم وشيك لم يكن في الحقيقة سوى ردة فعل ناجمة عن ذكرى قديمة تعود إلى عهد الطفولة غمرته فجأة وتاه في لمعانها.

امرأة خياله تلك كانت امرأة لا تنسى. خادمة في أوج شبابها دخلت البيت وهو لا يزال في العاشرة من عمره. كان يلاحقها ليرى ما اتفق من عريها وهي تسعى في أرجاء البيت الكبير وتقوم بأشغالها بحس عملي ينتابها شعور دائم بالحرص على ترتيبه ونظافته. كان بحاجة إلى وقت لكي يألف فكرة وجود امرأة جميلة داخل الأسرة تنام في غرفة مجاورة لغرفة نومه، وتتناول الطعام على نفس المائدة، وتستخدم الحمام وأدوات الاستحمام الخاصة بالأسرة حيث تحمل كل قطعة صابون وكل ليفة وكل منشفة شيئاً من صورتها، وأن يكون من جهة أخرى لامبالياً. كان يكتفي بالنظر إليها من بعيد ومن شقوق الأبواب، فكيفما تحركت كان فستانها يهتز ويظهر سروالها اللطيف بتجاعيده المثيرة وتحته يخفق طائر عنان أرعن ألهب خياله ليالي طويلة ولم تواته الجرأة ليصرح لها بذلك علناً.

ذات ليلة تسلل إلى حجرة نومها ورفع الغطاء عن ساقيها بهدوء وبطء تدريجي زاحفاً به إلى الأعلى. انتبهت المرأة لمحاولته وتركته يواصل زحفه على فخذيها إلى مكمن قلقه، وقبل أن يصل

إليه أوقفت يده بحركة ضاغطة متمرسة ولم تسمح له بمتابعة أوهامه. قالت له:

ـ إذا أردت أن ترى ذاك الشيء عليك أن تدفع مالاً.

جلب لها كل ما تحويه جيوب أبيه من مال، وسألها إن كان هذا يكفي. أخذت المرأة المال دون أن تعده وقالت بخبث:

ـ هذا يكفي للنظر فقط. لن تلمسه.

وقفت وسط الحجرة ورفعت الفستان إلى مستوى سرتها وكانت عارية تحته كل العري استعداداً لهذه المناسبة، لأنها لم تكن بليدة الحس إلى درجة لا تشعر فيها بأحاسيسه. وعندئذ رأى أدهم شيئاً كان يموت شوقاً لرؤيته دون أن تسنح له الفرصة من جديد لرؤيته ثانية. لم يتوقف عند مواعظ أمه عن فضائل نكران الذات وكبت الشهوات والإرهاب الدائم بالآثام التي تترتب على النظر إلى امرأة عارية. توقف لسبب آخر جعله يعتبر تكرار المحاولة نوعاً من زنى المحارم. فبعد يومين من ذلك دخل المطبخ مصادفة ورأى أباه ينال من المرأة من الخلف وهي تخفق العجين وكتفاها الثقيلان يهتزان تحته بجنون من الضحك.

تلك الخادمة كانت هيلانة بائعة ماء الورد المشهورة وصاحبة مقصورة اللذة التي تحدث عنها فتى الديك الرومي، والتي أهاجت ذكراها كرسيه الهزاز تحته، وأرعدت أصابعه فوق رتيبة برجفة تائهة. توقف عند هذه الذكرى في حنين خاص لأنه كان لها تأثير في النفس أكثر من سواها. وبصفاء ذهن تمكن من الاستنتاج بأن تلك المقصورة تنعطف بالزمن في دورة كاملة عائدة به إلى نقطة

البداية بين جدة فارقت أوانها، وحفيدة لم تعرف كما يبدو سوى الجزء الفاسد من عالم جدتها.

وفيما هو يفكر بأشياء عديدة أخرى بيّن لرتيبة وهو يخرج من صورة ارتباكه، أنه مع أختامه هذه يتمكن من رؤية أشياء يتذكرها من ماضيه لا لكي يوقظ بها رماد عهد ولّى، إنما لكي يعاند الزمن فلا يمحو الصور من ذاكرته.

لم يكن معتاداً على كشف جميع أسراره أمام رتيبة، خصوصاً تلك الأسرار المحرجة فيها التي تتنافى مع تهذيبه الأبدي، وكان غالباً ما يترك لأفكاره أن تتسرب إليها عبر أختامه بصمت وسرية.

وعلى هذا لم يقل لها الفكرة التي لمعت في ذهنه في تلك اللحظة التي انتهى بها من التفكير بهيلانة، وهي شكواه من حظه العاثر من أن جميع من قابلهن من النساء في حياته كلها كن يقبضن مالاً أجراً عن كل لقاء. وما استطاع أن يفر من مرارة تلك الفكرة إلا بالاعتراف لنفسه بأن له تصورات مبهمة قليلاً وأفكاراً شاذة أحياناً ناشئة تحديداً عن حياة خالية من الحب.

كانت لديه دائماً ذكريات ضبابية، وهواجس نفسيه وانطباعات كثيرة يرغب في التعبير عنها فوق جسد رتيبة وهي ترقد بين يديه بنفس مشرقة نقية تموج بمرح عفوي. يعاملها كأثري ينقب في الزوايا الأقل توقعاً ليكتشف انحناءة أو ندبة أو شامة أو شعرة ليمهرها بأختامه. وصار بمقدوره أن يتوقف بهدوء أعصاب وبرؤية متعمقة أمام أكثر التفاصيل سرية، ليحولها في النهاية إلى دهاليز ضيقة تعشش فيها هلوساته الروحية وأشباح طموحاته المنسية. شعر أنه حقير ونذل وقبيح وغريب وسط الفتنة الرقيقة الآسرة لامرأة

تبتسم بين النوم واليقظة.

حقاً ما الذي حدث له؟ وأي شيطان أخرق يدير معه هذا المشهد؟ وبهذا الوضع الكاذب والمخادع الذي يستغل فيه ظرف امرأة مقهورة، ألا يتساوى مع أسوأ أنواع الحمقى؟

كان قد بدأ مسيرة جنونية من تأنيب الضمير ترافقه فيها غربان بقعاء تلطم وجهه بأجنحة خفاقة حين جاءه صوتها منقذاً:

ـ ما بالك؟ لماذا توقفت؟

نظرت إليه من جديد فرأت نور المصباح يسقط فوق وجهه في غلالة من الضياء الأشهب، فيضفي عليه طابع رحالة دائم وجد أخيراً المكان الذي يلجأ إليه للانتقام الصامت من تعب الرحلة.

أجابها بحواس مستنفرة وهو يحدق في فراغ:

ـ صمت وفراغ تام، هل تشعرين معي بهذا الإحساس؟

جالت رتيبة بنظرها في أرجاء الغرفة وهي تصيخ السمع بيقظة. لمحت الخزانة ذات المرايا التي تقشرت فضتها في بعض الجوانب، ثم رأت الكومودينة من الموزاييك وفوقها فونوغراف قديم ببوق ضخم فاقد اللمعان. ثم رأت اللوحة الزيتية العريضة لامرأة عارية مستلقية في حنين لا ينطفئ إلى الكسل فوق منصة رخامية تحيطها أقواس ومعترشات عملاقة، وأمامها حيث يختفي وسط المرأة العاري جاط من الفضة مترع بأنواع الفاكهة الاستوائية، ثم رأت المزهرية التي تحوي زهوراً طبيعية من ذلك النوع الذي تحبه، ثم رأت تحتها السرير الواسع بوسائده المطرزة

وملاءاته ذات النسالات من الحرير وأجراسه المعلقة على عارضتيه وثيابها الملقاة بفوضى على أطرافه، بينما في الخارج في الصمت السرّي للبيوت، كانت هناك جلبة أمواج بحرية تصخب في الأسفل، وألحان جرسية واضحة لأشجار نخيل ملأى بالأصداء الشفافة تحملها الريح وتمر بها على الأسطحة بوشوشة مرحة.

في العادة غالباً ما كانت تظهر توافقاً لاهياً مع إحساساته الخرافية الجميلة، كأن يشرح لها مرور الضوء في الألوان، أو حينما يشعرها بأن عصافير صغيرة تتطاير من حفرة ثدييها وهي تخلع القميص، أو وهو يعدد لها ألوان فستانها مطبق العينين على طريقة العميان، أو وهو يتشممها ويتوهم رائحة عرق ليس من طينة بشرية وكأنها لا تأكل إلا الأزهار، أو حينما كان يتوهج بحشر أصابعه تحت إبطها ثم يخرجها ولها نور في الظلام. استقبلت ذلك كله بضحكات لا تنفد مبررة الأمر بأن حياته كلها كانت خالية من المثيرات الحسية وجرياً وراء أشباح وأشياء وهمية. أما الآن وهو ينقل إليها الإحساس بخواء الأشياء ويهيمن عليه سحر غريب وتعلو وجهه صفرة كثيفة تكاد تجعله شفافاً، فقد ذكّرها بالعجوز مزنة ساهمة محدقة في فراغ طافية فوق بحيرة من الشوكولاه. ودونما انتظار سارعت إلى إيقاف انجرافه كلياً في هذا الاتجاه وقالت له بنبرة جادة:

– كل شيء موجود في مكانه. والأصوات جلية إذا أصغيت جيداً فسوف تسمعها. أما إذا كنت تحاول أن تعيد قصة مزنة المحيرة، فعليك أن تعلم بأن هناك واحداً في العالم على الأقل لن يصدقك هو أنا!!.

أجابها ببراءة طفل ملائكي يشعر بذنبه:

ـ لم أقصد هذا، إنما أردت أن أحيرك قليلاً فلا تنتبهي لأختامي الليلة. لن يسرك المنظر!!

ألقت رتيبة نظرة خاطفة إلى نفسها وصعقتها الدهشة. انتقلت إلى مرآة الخزانة، وهناك صاحت:

ـ يا إلهي بأي حالة أنا؟ أكاد أنقلب إلى ساحرة عجوز!!

صارت امرأة من شمع والفضاء تقلص، تمثال شمعي أشوه انطبعت على جلدها الأختام المتراصة راسمة فوقه كلطخات شؤم رسوماً وترصيعات غريبة لم تكن يوماً على مثل هذا الجلاء والوضوح: آفات وعظايات ذات عيون جاحظة وشموساً نحاسية متآكلة وقططاً مبللة خارجة لتوها من الماء. وأعشاشاً لديدان ترابية نقرتها العصافير، وتطريزات أخرى مبهمة، حتى لقد تملكها شعور بالوهم غريب بأنها ليست هي نفسها.

اهتماماته تلك كانت تظهر لها أحياناً مضحكة ومسلية، وقد أعادت ذلك صراحة إلى عقله السديمي الذي ملأته خرافات الوظيفة السابقة ولا شيء آخر يمكن أن يراه خارج قلعته الفخمة تلك. أما الآن وقد بدت لها رسومه شيطانية وبالغة التعقيد والشطط، فقد وجدت لزاماً عليها أن تغير مجرى تفكيرها وتنظر للأمر من زاوية مغايرة.

تذكرت أنه طوال فترة علاقتهما معاً لم يقترب منها كرجل وامرأة. لقد لاطفته بلا تحفظ، وحاولت مراراً تحريك غرائزه النائمة بتلميحات غير متوقعة، وأطلقت جسدها فوق الفراش بتلك الشهوانية المتعالية والمترفة التي تذكر بأسلوب عاهرات الأفلام

السينمائية، عبثاً. فعلت كل ذلك لكي تتفادى الإحساس بالإساءة إليه حينما تسلبه كل أمواله دون مقابل.

لكن ذلك كله لم يؤثر فيه إلى درجة تصل إلى حد الكمال، وعندما ظهر لها بوضوح إلى أي مدى بات قلبه خالياً من أي توهج عاطفي، تحاشت أن تتعامل مع الجانب الذي خالته محتضراً فيه كي لا تميته بين ذراعيها من الخجل واحتقار الذات. قدرت أن بروده هذا ربما يكون ناجماً عن الشيخوخة أو عن علة متأصلة فيه، وما رسومه تلك إلا تعبير عن هلاكه. خشيت أن يكره نفسه إن لم يفعل شيئاً، وفي لحظة مباغتة فاضت بها حساسية امرأة ترى بأن عليها أن تقوم بدورها بصراحة وتزج بكل ما لديها من مواهب لترويضه، على الأقل لتتعرف على نهاية المهزلة. لكنها في اللحظة التالية عندما نظرت إليه ووجدته يعود إلى طبيعته ويعود لحركته لطف الناس الذين اعتادوا الواقع، تجرد قلبها من كل وميض من القلق وتراجعت عن مبادرتها تاركة الأمر للزمن.

قال لها بإخلاص:

ـ لا أدري كيف حدث هذا. وجدتها فكرة مسلية لكنها كانت حمقاء. أرجوك أن تقبلي اعتذاري.

أجابته بنبرة تأثر حارة:

ـ لا عليك. كل ما في الأمر هو أنني لا أريدك أن تفكر في شيء آخر وأنت معي.

جذبته من حمالة بنطاله برقة وهتفت:

ـ أتمنى لو كنت أعرف ما الذي نهذي به أحياناً. أقول لك: من الأفضل أن تأتي الآن وتليّفني. ما بالك؟ أقول لك تعال ليّفني. هل أصابك الكسل؟

في تلك اللحظة أدهشها ما انطوى عليه صوتها من حب وحنين، حتى لظنت بأن في الأمر خطأ ما، وأنه ليبدو أكثر عبثية من أن يكون طبيعياً. وما إن قطعت طريقها إلى الحمام وهي تجره وراءها، حتى كانت قد توصلت إلى حماقة أخرى هي أن حياتها تغدو صعبة للغاية وقد لا تطاق أحياناً من دون ذلك التصور بأن أدهم أفندي موجود فيها. لقد بات بالنسبة لها كل الأشياء التي تنقصها من حب وشرف وصدق وحلم، ومن دونه تفقد أن تتخيل نفسها إنسانة رائعة أو شريرة.

5

لم يمنع تكاثف الجراد الخرافي في أجواء البلدة العجوز مزنة من الخروج إلى حقلها السعيد الذي تنتظر فيه المعجزة السماوية دون يأس. لم تقبل نصيحة من أحد بالمكوث داخل البيت إلى أن تنحسر موجاته. ومقتنعة بأن الله أعدها لهذه الغاية النبيلة منذ ولادتها فلم يرفع روحها إلى السماء في ميتتين متتاليتين إلا لهذا الغرض، واصلت جهودها الدؤوبة المضنية في الذهاب والعودة من الحقل بمساعدة فتى الديك الرومي أحياناً، وبدلالة قلبها أحياناً أخرى.

تعبر الشوارع مطوقة بسحابات الجراد الكثيفة ثم لا تلبث أن تذوب وراء خفقاته المعربدة ممحوة من الواقع شيئاً فشيئاً كنعش تذروه رياح دبقة ملعونة. ففي اليومين الأخيرين تغطت البلدة والسهول المحيطة بها بوابل عظيم من الجراد الضخم، ملأ بتياراته

العاصفة الهواء والشوارع، وسبح على الأرض كالسيول وزحف على الجدران والأشجار، ودخل باحات الدور ثم خرج من الأبواب زحفاً وهو يخرّب ويلتهم كل ما يجده في طريقه من نبات وقش وخشب وقماش بلا رحمة.

واضطر الناس إلى إغلاق الأبواب والنوافذ ومداخل البيوت والمحلات. وإذا تحركوا في الخارج كان عليهم أن يفسحوا الطريق أمامهم بجرف أكوامه بالرفوش وإبعاد أسرابه الطائرة بالمكانس وأطباق القش.

ظهرت لعيني أدهم أفندي مطوقة وملطخة بالجراد كشجرة خرافية وقد ضلت طريق العودة إلى بيتها. أزاح عن وجهها بعض القوارض العالقة عليه، واكتشف أنه رغم احتفاظه برقة وشحوب جمجمة مائتة بعد قليل، إلا أنه لا يزال موسوماً بتلك العلامة الصوفية التي يخامرها شعور دائم بحدث عظيم مرتقب يكمن في مكانٍ ما حولها. هذه العلامة كما قدر هي التعويذة التي تقاوم بها الزمن وتبقيها على قيد الحياة مدة أطول مما تبيحه قواها.

وعلى سبيل العطف، أمسكها من ذراعها وقادها باتجاه بيتها. سألته السؤال نفسه الذي كانت تطرحه على كل من يقابلها أو يرافقها شوطاً من الطريق، لتترك لديهم انطباعاً بأنها على معرفة بهم جميعاً، وبأن حواسها لا تتقهقر:

ـ ما اسمك؟ إذا لم أخطئ فأنت لست هو. كنت أحاول أن أتذكر الشخص الذي تذكرني به فهو قريب الشبه منك. لقد مضى زمن طويل على رؤيتي له وتقدمت بي السن. بحق الله قل لي من أنت لأتذكر من هو؟

ما يعرفه أدهم أفندي والآخرون هو أن العجوز مزنة تجاوزت السبعين من العمر وما كان يشوب عقلها أية شائبة. فلم يسمعها أحد تنطق بهلوسة أو هذيان. ولم يلاحظ أحد أنها فقدت يوماً حسها بالواقع أو بالأشياء المحيطة بها. أما غفلتها تلك عن معرفة الأشخاص فكانت حالاً طبيعية لمخلوقة اعتقد معظم الناس بأنها تتابع الحكم بالأشغال الشاقة الذي كتب عليها مع أوهامها الأزلية بما تتصف به من طبع شقي وبما تنشىء لها مخيلتها من مآسٍ لا حد لها. لكنه دهش لرائحة الشوكولاه التي تعبق منها وترافقها كغيمة عطرية شفافة في كل خطوة تخطوها، رغم أنها هجرت عملها في تغليف الشوكولاه منذ دخولها تلك الغيبوبة المقدسة.

كان صاحب المصنع يرسل إلى بيتها شحنات الشوكولاه والكرميلا في أوعية محكمة الإغلاق، ثم تقوم هي بتغليفها بالأوراق التجارية الملونة بسرعة وإتقان يفوقان سرعة التغليف الآلي. لكنه عندما أعلمته بعدم رغبتها في مواصلة العمل لتتفرغ لمعجزتها، لم يبتئس لخسارة عاملة استثنائية مثلها خدمت في مصنعه منذ إنشائه، طالما أنه عوض ذلك بفكرة إطلاق اسمها على جميع الأصناف التي ينتجها مصنعه كعلامة تجارية مميزة. وكان لهذا تأثير حاسم على مبيعاته، فسرعان ما كثر الطلب على هذه الشوكولاه الجديدة حاملة اسم مزنة بالحروف المطبوعة ووصل إلى خارج حدود البلدة. وفي غضون شهر واحد تجاوزت مبيعاته ثلاثة أضعاف مبيعاته في عام كامل.

بعض الناس من العامة اعتبروا هذه البادرة من صاحب المصنع محاولة وفاء لتكريم اسم مزنة وتكريس قداستها، في حين اعتبرها تجار السوق مجرد استغلال ذكي لحدث عام شغل الناس طويلاً،

ولا يهدف في النهاية إلا إلى زيادة أرباحه التي كانت دلالاتها واضحة. مع هذا اتفق الجميع على أن هذه الشوكولاه التي تحمل اسم مزنة اكتسبت مذاقاً لذيذاً جديداً يجعلها من أجود الأصناف التي عرفوها في حياتهم، بعدما أخذت تنقل إلى ماضغيها طعم الجنة التي زارتها صاحبة الاسم أكان ذلك في الحقيقة أم في الخيال.

كان أدهم أفندي قادماً من جنازة امرأة حين التقى العجوز مزنة. فمع الساعات الأولى لزحف الجراد على البلدة انبعثت في الحي الذي يقطنه رائحة ممضّة تحمل ذكرى المقابر الموحشة. دامت ثلاثة أيام متواصلة وعانى منها جميع سكان الحي البحري. اعتقد الناس في البداية أنها رائحة الجراد، ثم تكهنوا بأنها رائحة المسلخ القريب بعد أن تفاقمت نفاياته نتيجة الإهمال. وما اكتشفوا إلا في اليوم الثالث أنها رائحة جثة متعفنة لامرأة تدعى هبة. وجدوها منتفخة سابحة على الأرض وسط قطعان هائلة من الديدان والذباب والجراد والحشرات الباحثة عن وليمتها.

كانت خطيبة تاجر هندي شاب مر بالبلدة مروراً عابراً قبل سبعة وأربعين عاماً تقريباً، لمدة ثلاثة أيام ثم لم يظهر بعدها قط. مر موكبه الحافل أمام دارها وكانت هي تسقي أصص الزهور المعلقة على محيط شرفة الطابق العلوي، عندما رأته بملابسه الزاهية المترفة تحت مظلة من الأطلس تحف به غابة من البنادق التي يعلقها خدمه ذوو اللحى والعمائم على أكتافهم. تبلبل عقلها وهام كما لو أنها وضعت فجأة أمام أعجوبة ليست من حقائق الحياة اليومية للبشر. اضطربت يداها من شدة الانفعال، وسقط أصيص ياسمين من الشرفة متحطماً على الأرض في ضجة بهيجة.

كان بجمال أمير أسطوري صاخب إلى حد أخذت فيه النسوة يهربن من طريقه خوفاً من رؤيته. وكان الرجال يدعونه للجلوس فيودعهم بوعد أن يعود إليهم في مرات قادمة. عندما سمع صوت وقوع الأصيص انتبه للمرأة ورآها واقفة في الشرفة هادئة هدوءاً عجيباً وهي تحدق فيه ويداها تقبضان الفراغ كمن مسّتها كف السحر. تقدم بخطى ملكية واثقة وتوقف تحت الشرفة وهو يتنبأ ولو بشكل غامض أنها المرأة التي كان يبحث عنها دائماً في خياله. حفر حفرة صغيرة في التراب مكان سقوط الأصيص وعيناه لا تفارقان عينيها، ثم نزع نبتة الياسمين بجذورها من تربة الأصيص المحطم وزرعها في الأرض وهو على يقين بأنها ستنمو في غيابه. في المساء طلب الزواج منها. خطبها في احتفال دعا إليه جميع أهالي البلدة وقدم لها صندوقاً من المجوهرات الثمينة النادرة وأحقاقاً ضخمة من عطور البلاد الهندية وأقمشة حريرية وكشميرية غصت بها زوايا البيت. ثم وعدها بليلة زفاف خيالية تشارك فيها الفيلة والنمور.

لم يعد وشاخت في انتظاره. رفضت كل عروض الزواج التي تقدم بها رجال مرموقون، ليس لأنها كانت على يقين بأنها لن يعجبها رجل بعده وحسب، إنما لأنها نالت كفايتها من الحب بعبوره الخاطف ذاك في حياتها. احتفظت بهداياه زمناً طويلاً مشدودة بأربطة مذهبة، لكن كنوزها تعرضت لسرقات مستمرة حتى اختفت نهائياً. تشبثت بالقليل الذي تبقى لها، صورة فوتوغرافية للأمير بضحكة تثير الهوس، ظلت مركونة فوق الكومودينة كنصب كئيب يكرس ذكرى نفثة الحب القاتلة التي منحها لها عندما أمسك يدها أثناء الوداع وضغط عليها بكفيه مطلقاً وعداً لا يرقى إليك الشك:

ـ انتظريني.. سأعود وسنشيخ معاً.

كان أدهم أفندي كلما مر في شارع بيتها يراها جالسة في الشرفة بكامل أناقتها وزينتها تنظر إلى البعيد وتحرك شفتيها بأشياء غير مفهومة كأنها تتحدث هواء. وما كان لأحد غير أدهم أفندي أن يفك رموز تلك الكلمات الغامضة على حقيقتها، بأنها رسائل ذهنية إلى الهند تستعجل فيها عودة الأمير مع فيله ونموره. أما نبتة الياسمين التي زرعها الأمير ذات يوم بعيد تحت الشرفة فقد نمت وتكاثرت مع أعشاب ومعترشات أخرى مشكّلة حديقة كثيفة تمتلك خصائص الأبدية وتغطي كامل الدار ما عدا تلك الشرفة.

خرجت جثتها في نعش ارتجل على عجل وبأقل عدد من المشيعين، ولم يكن لموتها مراسيم الجنائز المعتادة بسبب الجراد الذي كانت موجاته الكاسحة تخفق في الجو كمرجل يغلي وتصدر أصواتاً شبيهة بصرير مسننات آلة صدئة.

في المساء روى أدهم أفندي لرتيبة شيئاً عن الجنازة، ووصف لها كيف كان المشيعون يتنفسون غبار الجراد وهم يتقدمون باتجاه المقبرة وأحذيتهم تغوص في أفواجه المستقرة على الأرض كفرش سميكة. وقال لها إنه بعد خروجه من المقبرة شعر بأنه قام بمهمة عظيمة تجاه امرأة لم تعرف من حياتها سوى ألم الحب. جاءه صوت رتيبة ممعناً في البعد:

ـ العشاق لا ينبغي أن تكون لهم رائحة سوى رائحة الياسمين.

كانت تجلس متكئة بذراعيها على الطاولة وأمامها خمس شمعات مشتعلات. فقد علمها أدهم أفندي نسيان الذكريات الصعبة بالنظر

طويلاً إلى لهب الشموع. وكانت هناك موسيقى صافية منسجمة تنطلق من بيتها. معزوفات متتالية لأغاني محمد عبد الوهاب يبرع زوجها بعزفها أكثر من أي معزوفات أخرى. وخارج تلك الموسيقى كانت هناك أيضاً أجراس زينة صغيرة معقودة بمناديل أرجوانية إلى عارضة السرير جلبها أدهم أفندي خصيصاً لمرح رتيبة، كلما مرت بها الريح أو اهتز السرير تصدر رنيناً بهياً خافتاً كجلاجل الأسفار البعيدة. في مثل هذه الأحوال كانت رتيبة تبدو عصبية مكتظة ويعلو وجهها إرهاق مضيء حين لا تراقب ذاتها. فيرى هو عندئذ عينيها تحملان هموماً سرية غامضة سألها عنها ذات مرة فأجابت:

ـ أنا نفسي لا أعرف بماذا أفكر، أحياناً أحس بأنني بليدة وفي رأسي حجر. ليس الأمر مزعجاً لكنه ليس واضحاً على كل حال.

وعندما تلزم الصمت يشعر بأن هناك أمراً غير عادي يشغلها لكنه لا يعرف ما هو بالتحديد. لا يخاف مما يراه من رقة وجهها المربكة وكسل عينيها الباردتين التائهتين، إنما يخاف من أشياء داخلية تحدث لها وتختفي تحت مظاهر هدوئها المصطنع. ولسبب ما خارج عن إرادته ما كان بمقدوره التكهن إلا بأنها تجري لغير صالحه. فأشد ما كان يميته خوفاً أن تنقلب ذات يوم إلى امرأة اخرى تدرك حقيقة تصرفاتها معه فيثقل عليها شعور خفي بتوبة خرقاء بعيداً عن هذا العبث والشقاوات الجسدية التي يتبادلانها، ولن يطول بها الوقت لتوقف كل شيء وتعلن له خروجها من حياته. عندئذ إذا تحققت شكوكه هذه فسيقول لها فكرة واحدة محددة هي أنها إذا أعطت إشارة لجسده بأن يتوقف ويكف عن الحياة فسوف يستجيب ويكون الأمر أسهل. فجأة

انقلب مزاجها العفوي إلى مزاج متأمل محتسب ورأى وجهها يتغير سريع التبدل. قالت له وهي تحدق بلهب الشموع، وقد اتخذ وجهها تحت الضوء النحاسي بريقاً أخاذاً:

ـ إنه زوجي الذي يعزف على الكمان.

قال لها بلهجة خالية من أي دجل:

ـ أعرف، إنه يعزف بشكل جميل. يعزف موسيقاه وكأنه لاعب خفة.

لم تحدثه قبل الآن عن زوجها عازف الكمان هذا إلا قليلاً. ولم يسألها هو عنه. كان بالنسبة لكليهما كما لو أنه ليس له وجود. أما الآن فما دام موجوداً عبر هذه الموسيقى الجميلة لا بد من أن تحس به. هي التي طلبت منه أن يعزف لهما الموسيقى إمعاناً في إذلاله. ولعلها في تلك الفترة كانت تتسلى بنجاحها بنوع من الجنون. قالت له كاذبة: أدهم أفندي يريد ذلك. ولعل ما كان يرضيها من تلك الفكرة هو استهتارها وقسوتها بعد أن استهلكت من الوقت أقصى ما تحتاج له لتستطيع تقبلها دون أي إحساس بتبكيت الضمير. لقد أصبحت حياتها معه مرهقة بعدما انتزع كل شيء جميل منها. حكم عليها بالمهانة الأبدية على الأقل أمام نفسها. تمر عدة أيام لا تراه فيها ثم فجأة يصبح وجوده ثقيلاً وباعثاً على الشعور بالتفاهة والجبن. تركته يمر في حياتها كعابر سبيل مستعجل أبداً كأنه لا يمت إليها بصلة، وما بقي عليها إلا أن تتصرف على نحو طبيعي لتواجه قدرها حتى النهاية والذي لم يكن رحيماً معها حتى اليوم.

في تلك الليلة التي شعرت فيها بغيرته قدرت أن شيئاً ما بدأ

يستيقظ في روحه التالفة بعدما خالتها خامدة إلى الأبد. وظلت فترة من الزمن خائفة من أن يدهمها مع أدهم أفندي مدفوعاً بهياج قلبه ليهدم البيت فوق رأسيهما. فكان يواتيها إحساس مع كل لحظة بأن ثمة طرقاً على الباب ولا يبارحها الوهم بأنه يحطمه ويدخل عليهما. لكنه ما إن أخذت أموال أدهم أفندي تتدفق إليه حتى دفن أعراض الغيرة تلك في أعمق أعماقه تداعياً، وعادت إليه الطمأنينة إلى درجة حسبت فيها أن شيئاً مهما يكن لن يلحق الأذى بروحه لأنه هل يمتلك روحاً في الأصل؟

مع فكرة العزف لعشيق زوجته وهما يتطارحان الغرام، اختلف الأمر قليلاً. وبنظرة عابرة أتيح لها أن تستشف مدى الضيق المكتوم الذي أسبغ على وجهه المتذلل تعبيراً حاداً من الألم وازدراء الذات. لكنه تمالك نفسه وقبِل العرض دون أن يحاول إبداء كلمة احتجاج واحدة. ولم تدرك هي وجه السخرية في الأمر إلا عندما بدأت تشعر نحوه بشيء من الرأفة والعطف كلما تدنت صورته عندها وهي تراه في خيالها يعزف ويجتر مرارته مخلفاً حوله ألحاناً مرتابة وصوراً من ضياعه محسوسة في الهواء. ولم تعد تعرف بعد على من تضع اللوم، على نفسها، أم عليه هو، أم على إسار الظروف التي أحالته إلى فنان فارغ من المعنى يطارده شبح المال والرغبة في النجاح حتى لو أدى به الأمر إلى أن يصبح قواداً. ثم لم تعد تفهم كيف له وموسيقاه تحمل كل هذه الرقة والسحر أن يصير على هذا الوضع الشائن دون أن يتمنى الخروج منه؟

فجأة اجتاحت قلبها رجفة شؤم. تذكرت أنه بالأمس ألمح أمامها عرضاً إلى الأهمية التي يصير إليها الفنان الموسيقي فيما إذا شارك

في عزف الأناشيد الوطنية والأغاني الثورية في الإذاعة والتلفزيون. إنها الطريقة المثلى والأكثر عصرية التي تجعل من الفنان فناناً معروفاً ونافذاً، وتفتح أمامه أبواب الشهرة والمال على مصراعيها.

ـ الأبواب هناك ليست بحاجة إلى المدفع كي تفتح كما في زمن الانقلابات العسكرية السابقة. نحن الآن في زمن الأيديولوجيا حيث تفتح الأبواب وحدها عند استخدام كلمة السر السحرية المناسبة لها.

لم تعر رتيبة مشاريعه وشؤونه المهنية أدنى قدر من الاهتمام. وما شعرت يوماً بالألفة مع أصدقائه الذين يأتون لحياكة المؤامرات والدسائس الحزبية ضد رفاقهم، والسعي الهذياني للإيقاع بالآخرين، ثم تخدير أنفسهم بالتفاهات على أنها جزء من السياسة العليا للبلاد. لكنها الآن وقد استعادت تلك العبارات التي قالها بأسلوبه الشيطاني الذي يتقنه في الخلط بين الجد والهزل، ولمحت بريق سوء في نواياه، لم تستطع أن تدفع عن نفسها الشعور مرة ثانية بالخوف من علامات وإيحاءات اختلط فيها دائماً الجد بالهزل والممكن بالمستحيل والخطأ بالصواب. وتساءلت: هل يفكر بتقديمها للمسؤولين والمتنفذين هناك؟ وهل يعدّها لكلمة السر السحرية التي تحدث عنها بعد أن تنتهي مهمتها مع أدهم أفندي؟ ربما!! إنه مستعد للمضي بهذه اللعبة الحقيرة إلى ما لا نهاية، فهو لا يرتوي أبداً من تأمل دناءته التي باتت تملأ حياته ويمارسها ببساطة ويسر. أما هي فمخيلتها لا تطيق أن ينام معها رجل آخر. لا تحب أن يحدث لها هذا وهي حية. إن أحداً لن يحبها بهذه الطريقة التي يحبها بها أدهم أفندي ولا تريد وهي حية أكثر من هذا الحب. هذا الرباط الذي بات يربطهما معاً غدا

أقوى من رباط الحب السطحي العابر، إنه الرباط الذي لا يوجد إلا بين الشخص ونفسه. ولكن ما يثير بؤسها هو حقيقة نفسها المنحطة الآن، ولعلها لم تعد واثقة بنفسها حيال أي شيء. أحست بالألم مجدداً وبنفس الحاجة للبكاء.

فجأة وهو يراقب صمتها وجلوسها الكئيب في مواجهة الشموع، رآها تمد يدها وتضعها فوق إحدى الشموع ممسكة بالشعلة الصفراء المنبعثة منها، لكأن أمراً مفاجئاً عرفه فراغ تفكيرها في هذه اللحظة فأنساها ما تقوم بصنعه. ظلت يدها ثابتة هكذا بعناد حتى انتهى بها الأمر إلى أن أحرقت أصابعها وكأنما لا تشعر بذلك ولا تلاحظه. كأن المهم في الأمر أن تشهد عملية تمزيق اليد دون أن يصيبها الدوار. وما كان لتصرفها ذاك إلا أن يبدو غريباً في نظر أدهم أفندي. أسرع إليها ونزع يدها عن شعلة الشمعة صائحاً:

ـ انتبهي ستحرق النار يدك.

وما كاد يلقي نظرة ثانية متفحصة على يدها حتى رأى مذهولاً أصابعها النقية اللؤلؤية تنتفخ في الحال وتمثل آثارها الحمراء المتورمة كلما أذكت ذاكرتها نار الألم. قال لها وهو يقبل باطن اليد المحروقة:

ـ لا أدري أي شيطان يشغل تفكيرك فلا تنتبهي لنار كهذه. لقد احترقت الأصابع كلها.

لقد أعادت إلى ذاكرته مخاوف قديمة عن قدرتها الهائلة في تدمير الذات عندما تتخذ قراراً بذلك، كما حدث لها في محاولة

الانتحار السابقة. لوت رأسها إلى جانب في شبه لوعة وقالت له بابتسامة شفافة أبلغ من الأسى:

ـ لا تنظر إلي هكذا. أعتقد أنني سأبكي. إذا رأيتني دامعة العينين فسوف تجعل الأمر أسوأ.

قضيا ليلة سيئة. وضع لها مرهماً خاصاً بالحروق وود لو أنه يبيع الروح كيما ينتشلها من اضطرابها ويبدد ألمها. وفي الغد جاءته فكرة مدهشة نفذها في الحال.

وصل فتى الديك الرومي إلى حديقة الدار في ساعة العصر. كان برفقته ديكه الرومي مع سرب من الطيور عبارة عن ترنجانين ودوريين ودنورتين وزوجين من الحمام، وتحلق فوق رأسه وتتنقّل على منكبيه مالئة الجو بخفقان أجنحتها وطيرانها الغوغائي الصاخب. بالإضافة إلى كلب دربه على معرفة الوقت في المنبه وعلى إيقاظه من النوم برفع الغطاء عنه وتقديم ثيابه كي يرتديها وعلى حماية طيوره من المتطفلين.

عندما رأته رتيبة من خلف زجاج النافذة قادماً داخل ذلك المهرجان الاحتفالي والسماء ملطخة بسحابات الجراد الطائر، صعقتها المفاجأة وكادت تقفز إلى الحديقة من شدة فرحها.

في ذلك العصر استقبلها أدهم أفندي في الغرفة المعدة للضيوف وهي أوسع حجرات البيت وأفضلها تأثيثاً وتنظيماً. غرفة مريحة مبيّضة بالكلس متجددة بالهواء بأربع نوافذ عريضة ومزدحمة بالأثاث والمقتنيات الثمينة. كنبايات ذات عراقة وفيترينة على رفوفها أكواب وآنية فضية مزخرفة وفازات معشقة مطلية بلون

الذهب، وأطباق خزفية عليها رسوم لراقصين ومتنزهين تحت المظلات. وهناك على تربيزات خاصة سفينة شراعية ضخمة، وصدفة بحر عملاقة، وتمثال لامرأة زنجية تقرع على الطبلة، بينما عُلقت على الجدران ساعة ذات عصفور ناطق بالوقت وصور عائلية قديمة بالإضافة إلى صور فوتوغرافية حديثة العهد لأدهم أفندي تثبتت فيها إلى الأبد نظرته الساهمة باتجاه الناظر والتي يظن بأن وراءها تتكون دائماً مجازفة ما لكنها لا تكتمل.

منذ دخول موكب الطيور المزقزقة إلى الحجرة، قفزت رتيبة بينها بانفعال مجنون جامح وأخذت تغرد مثلها وتمرح معها بخفة وطرب الأطفال وما كانت تعرف عيناها أين تحطان. ركضت وراءها وطارت معها قفزاً في كل اتجاه، والهواء يحمل حرارة جسدها وصورة اهتياجها وصدى ضحكاتها، وبات يُسمع للأشياء عند مرورها تقصّف خافت كما لو أن أحداً يهزها من الداخل. وفي كل دورة يسقط ويتحطم إناء خزفي أو فاز أو صورة مزجّجة ومؤطرة. لقد جنح الديك الرومي معها أخيراً إلى المخازي واللهو وهي تغمر منقاره وعرفه بالقبلات، فأخذ ينقر فستانها ويفك أزراره ويشده بعيداً عنها، فلا يبقى عليها إلا أن تنكمش مختنقة بضحكها وهي تتمسك بأطرافه كي لا يغادرها نهائياً. ظلت تواصل لعبها مرحة لا مبالية نصف عارية وبشهقاتها المستثارة التي تنتزعها الطيور من فمها تعطي الانطباع بأنها اكتشفت نفسها للتو بطريقة المصادفة.

كان أدهم أفندي وفتى الديك الرومي والكلب يجلسون على الأرض لصق الحائط وهم يتابعون ذلك الاستعراض المرح بتلذذ غريب. بالنسبة لأدهم أفندي كان ذلك تمريناً على التنفس بغبطة

عارمة وهو يتابع التذاذاتها وشهقاتها الساحرة في صخبها تنعكس في جسده خدراً لطيفاً وترشح إلى أعماقه كأنه ظل آخر لها. أما الفتى فقد بدأت مشاعره تستيقظ على فكرة مدهشة لم يسبق أن راودته من قبل وهي إقامة سيرك جوال يطوف به مدن العالم ويرى الناس أعاجيبه. «اليوم ستدخلون عالمي. عالم الأعاجيب والغموض. تمتعوا معي بقوة الخيال».. حيوانات مدربة من كل صنف من الفيلة إلى السعادين، ومن الببغاوات إلى البجع، وعشرات الراقصات الجميلات يتهافتن على خشبة السيرك بأثوابهن القليلة، وعند نهاية كل استعراض يتقدم مع ديكه المغرور تحت أضواء الأسهم النارية ووسط عواصف التصفيق ليقدما التحية للجمهور بانحناءة من رأسيهما، دون نسيان أن يرتدي كل منهما صدرية لامعة بالنجوم المضيئة، وربطة عنق على هيئة فراشة.

6

في آخر يوم للجراد الذي استمرت إقامته عشرة أيام متواصلة، توصل فتى الديك الرومي إلى بغيته. لقد أمضى أكثر من نصف ساعات النهار من تلك الفترة في الساحة العامة حيث محطة السيارات والمطاعم الصغيرة ومبنى السرايا الحكومية بحثاً عن شاب غريب يصلح للزواج من عانس الدمى بعد أن شق عليه حرمانها وحنينها إلى رجل. كان قادراً على اكتشاف ذلك من عزلتها الدائمة ومن هوس أصابعها الرقيقة داخل سرواله في تلك التجربة الوحيدة التي لم تتكرر. ومدفوعاً بالإحساس بالواجب الإنساني تجاهها صمم ألا يعود إليها إلا وبرفقته زوج المستقبل، فهو يعرف ما يعرفه الآخرون أن طرق الزواج مسدودة أمامها في البلدة ولن تحظى بزواج لائق أو غير لائق إلا من شاب غريب يجهل ماضيها وعلاقتها بالسحر الأسود كما تقول الشائعات.

كان ينتظر تحت عصف الجراد قدوم بوسطة دمشق وحافلة بيروت اللتين تمران في البلدة كمحطة عبور، لعلهما تحملان بين ركابهما مسافراً عابراً بحاجة إلى زوجة. ومنذ وصول الحافلة كان يصعد إليها مع فتيان آخرين يبيعون المرطبات والبوظة والعلكة وكتب الأدعية الصغيرة وأطباق زينة مصنوعة من أوراق الشوكولاه المستهلكة. يتجول في ممر الركاب الداخلي وكلما رأى رجلاً يلمح في عينيه حنيناً لامرأة كان ينحني فوق رأسه ويطرح عليه السؤال همساً في أذنه:

ـ هل ترغب بشابة جميلة للزواج، أعرف واحدة سوف تعجبك؟

الجميع دون استثناء كانوا يدهشون لهذا العرض الغريب، ويفكرون أنه في بلدة أشباح كهذه يخنقها الجراد ويلون سماءها بلون الوحل وكل ما فيها يدخل في حالة من العطالة الحجرية، يمكن لأغرب الأحداث التي يتصورها العقل أن تقع في أي لحظة.

بعضهم كان يهز رأسه ضاحكاً باستخفاف قائلاً:

ـ الآن لا أريد، ربما في مرة قادمة.

وبعضهم كان يعلن عن وضعه العائلي كمتزوج بعبارة استياء:

ـ لا لا أرغب. تكفيني مصيبة واحدة.

وبعضهم الآخر كان يطلب من الفتى بلهجة حادة أن يبحث له عن رجل ثانٍ يرغب في الزواج ليهبه زوجته دون مقابل. أما الباقون وهم كثر فكانوا يشتمّون في عرض الفتى أسلوباً من أساليب البغاء، فكانوا يرمونه بنظرة احتقار غاضبة لإفهامه بأن الوقت لا يزال مبكراً ليبدأ حياته قواداً.

منذ هبوطه من باب الحافلة الخلفي وهو يجاهد كي يصلح حزامه حول وسطه، أحس فتى الديك الرومي بأنه وقع على الشخص المطلوب. كان شاباً بديناً بخاصرة عريضة ومؤخرة أنثوية وله قدمان مفتولتان إلى جانب تجعلان مشيته قريبة من مشية ذكر البط. مع هذا كانت له عينان براقتان رومانسيتان وشعر منسدل وضحكة ودودة بأسنان بيض لامعة ويرتدي ثياباً تنم عن ذوق رفيع وشيء من الثراء.

عندما سأله عن بيت شخص يدعى أدهم أفندي بوست تعززت ثقته بأنه التقى ضالته المنشودة. كان من أبناء إحدى مدن الشمال. هبطت عليه ثروة طائلة بعد موت أبيه وقرر أن يهدرها كما كان يحلم دائماً على هواياته التي لا يعرف غيرها والمتمثلة بالمراسلة وجمع الطوابع البريدية والسفر الدائم في طول البلاد وعرضها. وزيارته هذه للبلدة كانت بقصد التعرف إلى جامع طوابع ورد اسمه في بريد القراء لإحدى المجلات الفنية، وقد ذكر صاحب الرسالة أن جامع الطوابع هذا يمتلك مجموعة من الطوابع القديمة ذات القيمة التاريخية ويعود زمن بعضها إلى بداية القرن الحالي. فكر فتى الديك الرومي أن يأخذه مباشرة إلى بيت عانس الدمى، لكنه عندما رآه سهل الانقياد وبريئاً إلى حد السذاجة، قرر أن يتصرف معه باستقامة وأرجأ عرض الزواج إلى وقت لاحق.

ما إن فتح أدهم أفندي باب الغرفة يرافقه فتى الديك الرومي وجامع الطوابع البدين، حتى هبت في وجوههم زوبعة نشطة من نثار الورق اللاذع على هيئة انفجار صامت. انتظروا حتى هدأت الزوبعة واستقرت، وعندئذ اكتشف أدهم أفندي مذهولاً أن ذرات

النثار تلك لم تكن سوى بقايا الرسائل المخزّنة. جميع الرسائل مع أغلفتها وطوابعها وأختامها ذات النقوش تفتتت وتساقطت على الأرض تساقط الذكريات الميتة ولم يبق ما يستدل به على أصلها سوى رائحتها الشبيهة برائحة النسيان.

طاف في أرض الحجرة وسط انسحاق كئيب لشظايا خشبية متعفنة وقدماه تغوصان حتى الكاحلين في طبقات الرسائل المبددة. لا يملك سوى التحديق في الأشياء البائسة المتبقية وآثار الصدمة بادية على وجهه. عالم بكامله انهار أمام عينيه كما لو أنه بناه من حلم. كان قد قرر إعطاء البدين كل ما يستطيع تخليصه من طوابع ملصقة على أغلفة تلك الرسائل، لكنه عندما وجدها مستنزفة على ذلك النحو الجائر، تألم من أعماقه ولم يستطع كبح دمعتين سخيتين جالتا في محجريه وانحدرتا إلى الأسفل ثم استقرتا عند زاويتي فمه بصمت.

قال للشاب البدين:

ـ يعلم الله أنني كنت أتمنى أن أخدمك. لكن كما ترى لم يُبق الجراد شيئاً. وللأسف لن تكون هناك فرصة أخرى لورود رسائل غيرها.

حاول الشابان مواساته فما وجدا طريقة أفضل وأكثر صدقاً من مشاركته الدموع الصامتة.

أخيراً رحل الجراد بعد عشرة أيام طويلة قضى خلالها على كل نبات حي ما عدا النباتات التي تمت حمايتها داخل البيوت.

غابت آخر أسرابه وشهد الجو المتقلب انقشاعات مفاجئة وسريعة لموجاته، وحل النور والهواء النقي المنعش، وأصبح بمقدور الناس فتح نوافذهم والخروج إلى الشوارع التي غطتها جزر من جثث الجراد النافقة.

لم يبتئس أدهم أفندي لمصير حديقته، لكن مصير الرسائل خلف وراءه آثاراً كئيبة. كان يدرك أن الرسائل تلك لم تكن جزءاً حيوياً من ماضيه. فقد ظلت سنوات طويلة مرمية في زوايا الغرفة مثل أي شيء مهجور أسلم للإهمال وفقد قيمته مع الزمن. لكن جاء وقت ملأت عليه حياته اليومية الرتيبة، وعلمته حكاياتها الغارقة في أعماق النسيان كيف يواصل مصيره البائس قبل أن يضطر إلى محاكاة الجدران. لقد غدت مع أختامه التي وقع بها قصة مروره في هذا العالم الدليل الأخير على حقيقة وجوده التي كانت على درجة كبيرة من الاتساع قبل أن تضيق وتتحول إلى لا شيء. وبخسارتها بات يشعر بأنه يعيش نصف إنسان بنصف حياة لأن نصف الدليل الآخر ذهب إلى القمامة.

هذه الأفكار وغيرها الكثير حاول أن يشارك بها رتيبة قبل أن تتجمع في صدره إلى أن تخنقه نهائياً. جلست تراقبه بهدوء وهو يروح ويجيء بانشغال وعقل لا يعرف الراحة ويروي لها ما يتذكره من تلك الرسائل البائدة التي حملت أخبار نجاحات وولادات حديثة سارة، وأخبار مرض وميتات حزينة وخيبات أمل. رسائل حب معطرة ذات رسوم في زواياها، ورسائل عاطفية فيها لوعات لا يعرف فيما إذا كانت في طريقها إلى أن تتم أو في طريقها إلى الانتهاء. كانت هناك أيضاً رسائل للذكرى مرفقة بصور فوتوغرافية لأصحابها، وأخرى تحوي زهوراً بأغصانها ما

يكاد يلمسها المرء حتى تتفتت وتستحيل إلى غبار. أثارت اهتمامه على الدوام رسائل يتحدث فيها مرسلوها المهاجرون عن الطبيعة المأساوية لحياتهم في الغربة، ورسائل أخرى يطلب فيها أصحابها من ذويهم إرسال بعض المال للاستشفاء من أمراض خطيرة قد تودي بحياتهم.

ـ ربما عاشوا. لكن الأرجح أنهم ماتوا لأن تلك الرسائل لم تصل.

أصغت رتيبة إليه مشفقة وبنوع من المجاملة الصامتة كي لا تمس بتدخلها شغاف حساسيته. ولكن في ذروة غضبه على الجراد وعلى نفسه لأنه نسي نافذة المخزن مفتوحة في آخر مرة قرأ فيها بعضاً من تلك الرسائل، وهو لا يكاد يرى ما ينظر إليه من شدة الانفعال، نهضت المرأة من جلستها بهدوء مثالي، وكمن تقوم بأبسط الأعمال وأتفهها تجردت من بلوزتها وتنورتها دفعة واحدة ثم مضت إلى السرير وانبطحت فوقه عارية إلا من سروالها. انتهزت لحظة هاربة بدا فيها أدهم أفندي يستجمع أسلحته الفكرية لمتابعة معركته مع لا أحد وقالت له بنفاد صبر:

ـ عندما تنتهي من تأملاتك العقيمة هذه، انظر إلي فستراني جاهزة.

استعاد أدهم أفندي نفسه من الشعور باليتم الذي هيمن عليه حتى ذلك الوقت، والتفت نحو المرأة السابحة فوق الأغطية وقد اصطبغ وجهها بالحمرة والتصقت حول جبينها وعنقها خصل من الشعر الندية بعرقها. أحكم نظارته المنزلقة إلى طرف أنفه كي يراها بصورة أفضل بكل ما تنطوي عليه من سحر وشهوانية وسألها:

ـ لا شك تعتقدين بأنني ثرثار وتطلبين مني أن أصمت؟

توقفت المرأة عن حركة كانت تؤديها وأجابته بلطف:

ـ أحب سماعك دائماً.. لكنك اليوم تتحدث بشكل غير سار. ولو فكرت جيداً لاكتشفت أن ما خسرته في الحقيقة لا يساوي شيئاً.

ظهرت على وجه أدهم أفندي المهموم تعبيرات هي مزيج من الكآبة والحيرة وخرج صوته رغماً عنه:

ـ هل كنت أتحدث هراءً إذاً؟

أجابت رتيبة:

ـ لا أعرف. ما أعرفه هو أننا ما دمنا نعيش معاً فلا ينبغي لأحدنا أن يكون سبباً في ضجر الآخر.

وصلت هواجسه إلى نهاية المطاف، ورغم أن المرأة لم تجزم بأنه كان يخرف وكان مسروراً لهذا، إلا أنه بقي أمر يخيفه التفكير فيه، سألها بتوجس:

ـ بالتأكيد لن يكون الأمر واحداً مع الأختام أليس كذلك؟

انزلقت رتيبة بجسدها المترف فوق الأغطية المشعثة وقالت بصوت غنائي عذب:

ـ لن يكون واحداً مع الأختام بالتأكيد. لأنني أنا من يجب أن أطلب منك هذا.

غرق وجهه في مرح فوسفوري متألق وخف إلى كومودينة الأختام

في حركات لها اضطراب طفل. أفرغ الأختام على دفعتين ورماها فوق الفراش وهتف بصوت تشوشه البراءة اللذيذة:

ـ أنت ستقولين لي من أين أبدأ اليوم؟

أسقطت رتيبة سروالها عن ردفيها قليلاً وأشارت بإبهامها إلى تكور أحد الردفين وقالت:

ـ من هنا..

على العكس مما توقعه فتى الديك الرومي كان استقبال عانس الدمى لعرض جامع الطوابع البدين بالزواج منها، استقبالاً باهتاً بارداً وخالياً من اللهفة التي كان ينتظرها. لم يمض على تعارفهما أكثر من يومين تردد خلالهما على بيت العانس بصحبة فتى الديك الرومي، حتى أدرك يقيناً بأن هذه المرأة ذات العينين بلونين مختلفين هي المرأة الجديرة بأن يضع قلبه بين يديها. بهره جمالها الغريب وكان كلما نظر إليها يضطرب قلبه بضجيج متسارع ويشتعل جسده بحمى لذيذة، ويضيع رغم بدانته في المكان. مشاعر وأحاسيس عاش حياته من دونها حتى جاءت وعرفته عليها بنظرة من عينيها الساحرتين.

في ذلك المساء الذي أمضياه معاً يقلبان خيبة الطوابع، لم يكن البدين ينوي سوى العودة إلى مدينته صباح يوم الغد. لكن فتى الديك الرومي قطع سهومه ونصحه مراوغاً:

ـ في هذه البلدة أشياء كثيرة جميلة يمكنك أن تحصل عليها غير الطوابع.

سأله البدين باهتمام:

ـ مثل ماذا؟

أجاب الفتى:

ـ زوجة مثلاً.

فوجئ البدين بالفكرة لكنه ضحك وقال:

ـ لم أفكر بالارتباط بأي امرأة من قبل.

تابع الفتى خطته مشجعاً:

ـ أما أنا فعندما أصبح في مثل سنك فسأكون متزوجاً.

لم يستطع البدين إخفاء إعجابه بالفكرة الجديدة وما تصوره من ملحقاتها. وعندما ألمح له الفتى بأنه يعرف فتاة يمكن أن تحبه، نهض من قعدته وقال له:

ـ خذني إليها.

لم تضحك عانس الدمى في حياتها كلها مثلما ضحكت في تلك الآونة. وكانت هناك أسباب عديدة لضحكها هذا. فلأول مرة بعد سنين طويلة من العنوسة المعذبة تعرف لحظات من عودة الطمأنينة إلى روحها المضطربة. أضف إلى ذلك أنها كانت كلما حاولت الإعجاب بشعر البدين ومشيته الشبيهة بمشية ذكر البط، كانت تغدو في نظر نفسها مثيرة للضحك، فما كانت تملك إلا أن تضحك وتوهم البدين بأنها تضحك من فرط سعادتها بوجوده معها. أما عشقه المضجر فكان سبباً آخر للضحك لأنها ما كانت تنتظر يوما عاشقاً يريد أن يحولها إلى لوحة معبودة. خشيت أن

تكون هذه آخر فرصة يمنحها لها القدر، فوافقت على الزواج وحددت موعد العرس بعد أسبوع. لكن البدين خاف أن تلفظ البشرية أنفاسها قبل هذا الموعد، فركع عند قدميها متوسلاً أن تقدم الموعد إلى الغد قبل أن يصبح إنساناً شقياً. رفعته العانس إلى مستوى عينيها وقالت له بإحساس دافئ:

ـ ولكنك هكذا لا تعطيني وقتاً لأغسل وجهي وأمشط شعري!!

أجابها فوراً بصوت عاشق عيل صبره:

ـ حتى الغد سيكون بعيداً.

وافقت بقناعه ورضى كاملين لكنها قالت ضاحكة:

ـ إن أحداً لن يصدق أن زواجاً يتم بهذه السرعة.

كانت مخطئة. فالجميع صدقوا. والجميع تمنوا لها حياة هانئة في مدينة البدين التي ستسافر إليها. والجميع زحفوا إلى عرسها لا ليتناولوا الأطعمة والحلويات التي بذخ فيها البدين كل البذخ، إنما ليحتفلوا تمجيداً بالخلاص منها. وقبل هذا حضّروا البخور مسبقاً لطرد بقاياها الشيطانية التي قد لا ترغب في اللحاق بها.

كان من المقرر أن يحضر أدهم أفندي العرس، لكن ضيفاً طارئاً منعه من ذلك. أرسل إكليلاً من الورد مع فتى الديك الرومي ولقنه الكلمات التي سيقولها للعريسين باسمه. وبقي في البيت متفرغاً لضيفه.

كان الضيف ابراهيم زدابه وكان على معرفة قديمة به. لا يمكن إلا أن يلفت الانتباه إليه عند مروره أو دخوله إلى أي مكان.

وعندما رآه أدهم أفندي قبل عشرين عاماً لأول مرة، شعر بأنه إزاء رجل خارج لتوه من انفجار مدمر. وكان ذلك حقاً.

قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بعامين انضم إلى آخر دفعة من المتطوعين الذين التحقوا بقوات الحلفاء المتوجهة إلى صحراء العلمين التي كانت تدور فوقها معارك طاحنة. في أوقات الهدنة، عندما كان يجد نفسه محارباً بلا حرب، اعتاد أن يتجول بين أنقاض الساحات بحثاً عن تذكار أو ساعة أو خاتم ذهبي أو محفظة نقود. وزاد طموحه مع الوقت والممارسة بمروره الجريء بين آلات محترقة وقطع أسلحة منكسة وأحذية وخوذات جنود تركها الجرحى والفارّون، ثم بتجواله بين بقايا أردية وأحزمة وشظايا قنابل وأوسمة لامعة انطمرت في الرمل، وهو يجر وراءه كيس بحار يملأه باللقى والأشياء الثمينة التي يعثر عليها. شارك في إخلاء الجرحى والقتلى حسب مقتضى الحال، لكن هدفه كان منصباً على جثث الموتى. يقلبها ويبحث في جيوبها وأعناقها وأيديها عن محافظ أو مال أو ذهب، ثم كان يدفنها كما يليق في حفر قليلة العمق لكي لا تأكلها العقبان.

آخر خطوة له في ساحات الحرب البعيدة هناك، كانت فوق لغم مموّه. أحس بشيئين فقط، لمعة الانفجار الأولى للغم، ثم بغيمة دخانية فطرية تحمله وترفعه إلى الجو. ثم ما أفاق على نفسه إلا وهو في المشفى الميداني بلا ذراعيه، وبلا عينه اليمنى، وبلا نصف جمجمته التي كوتها النار فخلفت فوقها بقعة واسعة من الجلد القاحل الأشوه وبقايا شعر من رماد.

ـ هناك احترموني ورمموني.

يقصد بذلك أن الإنكليز عالجوه في مشافي بلادهم. وضعوا له فوق عينيه نظارة إحدى زجاجتيها سميكة وعاتمة لتخفي محجراً فارغاً، ثم ركبوا له ذراعين اصطناعيتين لهما يدان على شكل كلابتين مثبتتين بأسطوانتين من البلاستيك القاسي ومعلقتين إلى كتفيه وقفا عنقه بخيوط متينة تتحكم بفتح الكلابات وإغلاقها. بعد ذلك أعادوه إلى الوطن ومنذئذ عين له راتب تقاعدي يرسل له بالبريد في نهاية كل شهر.

من مركز البريد بدأت علاقته بأدهم أفندي. ومع مرور الزمن تطورت هذه العلاقة إلى نوع من الصداقة بعدما أخذ ابراهيم زدابه يزوره بلا انقطاع حين لم يكن يجد مكاناً آخر يخمر فيه سوى بيته. وكان أدهم أفندي يستقبله في عطف خاص ويقدم له الخمر والطعام. أما زيارته تلك الليلة فقد جاءت بعد ست سنوات من الانقطاع المتواصل لم يلتقيا خلالها قط.

استقبله في غرفة الجلوس، وأجلسه على المقعد الخاص الذي كان يجلسه عليه دائماً لأنه يتيح له استعمال ذراعيه الاصطناعيتين بسهولة أكثر. قال له صادقاً إنه سعيد برؤيته بعد كل هذا الزمن ولو أنه أظهر له لوماً رقيقاً إذ مضت كل هذه السنوات دون أن يفكر بزيارته.

ـ لقد أشعرتني بقسوة النسيان. لكأن الناس هنا لا يجيدون شيئاً بقدر ما يجيدون النسيان. إنهم يبدون وكأنهم ليسوا بحاجة إلى أصدقاء أبداً.

أجابه ابراهيم زدابه بشيء من الواقعية الشفافة:

ـ نسيان العقل ليس إلا يا جنرال. ولعل ما يهدمه العقل يصلحه القلب أخيراً.

هكذا يناديه: أيها الجنرال. لقد ألفه أدهم أفندي خلال زياراته السابقة حتى صار بمقدوره أن يتكهن بكل كلمة سيقولها وكل حركة سيؤديها في وقتها المحدد، لأن شيئاً فيهما لا يتغير. لا شك أنه اختلف كثيراً بعد نقصان أعضائه، ولسوء حالته بدا لأدهم أفندي يومها كما لو أنه الوحيد من بين أولئك الجنود المتقاتلين الذي قاتل عنهم جميعاً. ولهذا كانت الحرب موضوعاً دائماً له، ولأنه في الحقيقة لا يعرف موضوعاً آخر يتحدث عنه غيرها. يجلس متخذاً وضعية الجندي القديم ويصب لمحدثه كأساً مقابل ثلاث كؤوس له. ومن عادته بعد ذلك أن يضع بين كلابتي يده اليسرى منشفة يجفف بها عرقه الغزير، ويترك يده اليمنى حرة لإمساك كأس الشراب من حافته. وكان عليه كلما أراد استخدامها أن ينحني برقبته إلى الأسفل ثم يقلقل كتفيه بانتفاضة محسوبة يوازن بها خيوط الآلة. فتجعله حركاته الميكانيكية تلك يبدو كمن أصيب باختلاج عصبي مفاجئ، وتصبح رؤيته بعد ذلك مستحيلة إلا داخل كلة دخانية من البارود المشتعل.

ـ سيكون لدينا وقت نتحدث فيه عن هذا الأمر أثناء الشراب.

جاء اقتراحه هذا من كل قلبه. فقد مضى زمن طويل على آخر مرة التقى فيها أحداً من أهل البلدة، وهذا الزائر بالذات كان آخر من يتوقع قدومه. أحس برغبة شديدة في أن يسمح له بتعذيبه. فنهض لإعداد المائدة والشراب وهو على علم بأنه سيكون بعد

دقائق عرضة لأفكار وتداعيات لا رحمة فيها عن حرب طواها الزمن وأصبحت من الماضي البعيد. جولة مرهقة قد تمتد إلى أربع ساعات كاملة سيقوم فيها بمهمة الإصغاء إليه الشاقة، دون أن يكون له فيها أي دور سوى أن يردد وراءه شارد الذهن: كل شيء ممكن. وهذا صحيح إلى حد ما. وهذا جائز طبعاً. وهكذا يكون الأمر جلياً أكثر. فخلال تلك الساعات غالباً ما لاحظ أدهم أفندي بأن سكره يمر بثلاث مراحل بيّنة. المرحلة الأولى يبدأها عادة بالحديث عن بعض الشؤون العامة التي يلتقط أخبارها عبر جولاته المتواصلة في البلدة وقراها. وبعد عدة كؤوس يصبها بابتهاج ويعبّها عبّاً، يعلن نهايتها بقوله المتكرر:

ـ جميع الناس يمسكون الحياة من الجهة التي يريدون إمساكها بها. إلا من شهدوا الحرب فهم يمسكونها من ذيلها قبل أن تتوارى. أنا واحد من هؤلاء يا جنرال، أمسكت الحياة من قفاها.

بعد هذا وهو يتجرع كؤوساً مركزة يظل ساعة تقريباً تشغله ذكريات الحرب والجبهات المدخنة ودروب الجنود التي يلاقي فيها الرجال حتوفهم ومصير القوات التي تبتلعها رمال الصحراء. وإذ يحس بأنه بات غير قادر على أن يقاوم أكثر من ذلك الانطباعات التي تحتشد في رأسه، يعلن بصوت في غاية الوضوح بأن هذا العالم كله قائم على سخافات، يشعل قادته الحروب ويطفئونها ويدمرون المدن ويبنونها، ثم يداوون الجرحى ويزورون المقابر لذرف الدموع.

ـ أليست هذه أحجية يا جنرال؟..

وقبل أن يرتمي نهائياً في مواجهة ثرثرته الفارغة بين كأس تُفرغ

وكأس تُملأ بلا انقطاع، كان يتراءى له شيء أشبه بالوحي، فيتنهد قائلاً بلهجة من ينتظر حرباً عالمية ثالثة:

ـ مع هذا لولا تلك الحرب لما كنت شيئاً يا جنرال. كانت فظيعة لكنني بفضلها أصبحت شيئاً ذا أهمية وصار المال فائضاً عن الحاجة. إنني أجزم بأن أحداً لا يمكن أن يدنو من السعادة التي أدنو منها الآن، إلا إذا كان ابن قحبة مثلي.

في المرحلة الثالثة كان يأتي دور أدهم أفندي. لقد تركه يعذبه مع قعدته المتيبسة، منتظراً اللحظة التي سيسقط فيها جثة هامدة من فرط السكر. وكانت علامات ذلك واضحة، فبعد دقائق من الترنح والزوغان والتشتت الذهني، كان يطلق شخيراً مفاجئاً يشوش أنفاسه، وتبدأ حركاته بالاختلال ومعادنه تصطدم بالصحون والكؤوس على الطاولة. وكل ما تجمع راقداً في روحه حتى تلك اللحظة ينفجر بعبارة صريحة نموذجية يلخص بها ليس حياته وحسب إنما الحرب ونتائجها وما تلاها والعالم وما فيه:

ـ وكل ذلك لم يكن سوى أيور حمير يا جنرال.

وتلك تكون آخر العبارات التي يطلقها وهو يقظ وقبل أن يتداعى رأسه فوق الطاولة في ضجة صماء. فما يبقى على أدهم أفندي إلا أن يحمل ركامه المفكك ويضجعه على الكنبة الطويلة محاذراً كي لا تسقط ذراعاه المعدنيتان على الأرض بانتظار الغد لإرساله إلى بيته. فوجئ أدهم أفندي بأن ضيفه ابراهيم زدابه في تلك الليلة لم يكن راغباً في الحديث عن تلك الحرب. أمضى قرابة الساعتين ولم يتطرق إلى ذكرها، كما لم يدخل في مراحله الثلاث المعروفة التي خبرها أدهم أفندي بأدق التفاصيل. كان

ينتظر بين اللحظة والأخرى أن يعود إلى مظاهر شغفه القديم لعله يقوي لديه هذا الإحساس بالماضي الذي نأى عنه، لكنه لم يفعل. ورغم أنه ظل محتفظاً بحدود قابليته العجيبة للشراب، إلا أنه كان يتجاذبه قلق عظيم، ولم يكن يلح عليه سوى الاضطراب الذي توحي به ذراعاه المعدنيتان وهما تشكان بأصل الأشياء. ذلك أن سحنته المدمرة المصبوغة بدكنة الموت كانت كتيمة وغير قادرة على نقل الأحاسيس التي تثقل روحه. بدأت الأفكار تكرّ في ذهنه بطيئة في البداية، فتحدث عن أشياء قليلة الأهمية وأشياء أخرى لا أهمية لها. توقف عند بعض الحوادث التي جرت في البلدة أخيراً ومنها غزو الجراد. ثم وهو يتجرع كؤوساً كاملة كي ينطفئ فلا تكون له بقية قدرة على التركيز، مضى موضحاً لأدهم أفندي عذاباته الخفية مع ذراعيه المعدنيتين هاتين. قال له إنه يجد صعوبة في تناول الطعام والشراب بهما، ويضطر إلى شرب العرق بكأس خاصة لها أذن كي تعلق بهذا الخطاف اللعين. وهو أيضاً بحاجة إلى من يساعده في ارتداء هذا الجهاز المعقد وخلعه كل صباح ومساء. ثم ذكر له المرارة التي تصيبه كلما حاول تنظيف نفسه بعد كل استرحاض. كان ثمة ألم أصم ينبعث من نفسه. وكانت شفتاه المتيبستان تنبئان بأن لكل شيء في نفسه مذاقاً مراً. رغم أنه حاول مراراً أن يخفي عصبيته وراء بعض المظاهر المرحة حين ذكر لمضيفه أنه يضاجع زوجته بطرق غريبة، والأصح أن يقول إنها هي التي تفعل ذلك فوقه. هذه الأمور تدفعه طيلة الوقت إلى أن يسكر سكراً متواصلاً حتى الموت كي لا يشعر بثقل الزمن الساحق، وينام نوماً رصاصياً بلا كوابيس.

بقي ساكناً للحظة وهو جالس على مقعده يسحق مفاصله التعب ويهيم في متاهة النعاس. تأمله أدهم أفندي كمن يتأمل شبحاً من

تلك الأشباه القلقة التي تقطع شوطها الأخير من رحلتها نحو العدم، وذكره بكأسه الفارغة لعله ينشط مزاجه:

ـ ألن نملأ كأساً أخرى؟.

أجابه ابراهيم زدابه وقد وجد أخيراً تعبيراً مقنعاً يدخل به إلى ما يجرفه بتياره:

ـ هذا يكفي. وعلى كل حال ما لهذا الأمر جئت إليك. جئت أطلب منك أن تسدي خدمة لصديق قديم.

كان في صوته مسحة كآبة لا عزاء لها، وفي الوقت نفسه حمل صوته تلك النبرة التي تظهر عادة في أحاديث الذين يحبون أن يحلموا. سأله أدهم أفندي متحفزاً لتقديم أي مساعدة:

ـ ما هي؟.

أجابه بحضور ذهن:

ـ أن تكتب لي رسالة.

عندئذ فهم أدهم أفندي مبرر زيارته له في هذه الليلة. وكان طبيعياً أن يرحب بتقديم خدمة كهذه، ما أسعده أمر في الماضي مثل تقديمها. سأله:

ـ رسالة لمن؟.

ودون أن ينظر ابراهيم زدابه في عينيه، أجابه وصوته لا يصدر عنه بل يسمع في مكان قربه:

ـ للعجوز مزنة. لقد زوّجت العانس. لا أستطيع أن أفكر إلا بما

يفكر به الآخرون.

لن ينسى أدهم أفندي غفلته في تلك اللحظة حين سأله:

ـ وماذا ستكتب فيها؟.

رفع ابراهيم زدابه ذراعيه المعدنيتين فوق الطاولة كمن يضع صورة ضياعه أمام عينيه وقال له:

ـ قل لها أن تعيد إليّ ذراعي. هذا ما أنا بحاجة إليه.

أحس أدهم أفندي بالحرج من غفلته تلك، إذ كان عليه أن يقدر ما يحتاج له صاحبه هذا من العجوز مزنة دون أن يضطر إلى سؤاله عنه. نظر إليه فوجده يترنح متقوقعاً على نفسه، ورأسه يوشك أن يتهاوى فوق الطاولة. وبجهد أخير قال له بصوت منكود مشبع بالرماد:

ـ اكتبها بخطٍ واضح يا جنرال. قل لها أيضاً إنها لن ترى ما هو أفظع من هذا حتى في الجحيم.

7

ـ أغلق الأبواب والنوافذ عم أدهم. أغلقها جميعاً.

رعد فتى الديك الرومي بذلك وهو يتقافز غضباً، ودونما انتظار هبّ إلى إغلاق النوافذ والأبواب كأن شيطاناً دخل تحت جلده وهو يحركه. سأله أدهم أفندي مستغرباً:

ـ ما الأمر؟. هل عاد الجراد؟

انفجر الفتى في موجة بكاء كاسحة وقال:

ـ لا. بل أكلوا ديكي.

قبل ثلاثة أيام هرب منه الديك الرومي واختفى. بحث عنه في كل الأماكن ولم يجده. لم يفقد الأمل بالعثور عليه وهو يقضي الساعات الطويلة متجولاً في أزقة البلدة ومجاهلها المقفرة منادياً

ديكه بالصفير والطنين، عبثاً. عند مكب القمامة على أطراف البلدة انتابه الذعر. فجأة لمح ريش الديك الرومي المدهون بألوان طاووس والذي لا يمكن أن يكون إلا لديكه، مبعثراً فوق أكوام النفايات وسط طنين هائل للذباب الأزرق. أبالسة الأرض كلها قفزت تتراقص أمام عينيه المحمومتين. طفق يعدو بشكل جنوني، فانقلب عدة مرات وارتطم رأسه بأحجار الطريق. وبشق النفس وصل إلى بيته لكأنه عبر غابة صاخبة عدائية ملأى بالوحوش والمعترشات المدوخة. ولم يشعر إلا بعد زمن أن جبهته تنزف دماً.

اشترى كل المسهلات الموجودة في صيدليات البلدة. أذابها بالماء وسقاها لطيور الحمام التي صارت من الكثرة بحيث يستحيل حصر أعدادها. ثم أطعمها حبوباً منقوعة بالعرق الصافي المسكر وطيّرها بصفرات حادة حانقة وبفزاعة لا تكف عن الخفقان. وبعد كفاح صابر دام ساعتين شعر بارتياح عارم لوصوله إلى هدفه. لقد طارت قطعان الحمام الثملة وحلّقت بأسرابها في سماء البلدة جيئة وذهاباً. وكيفما تحركت كانت مؤخراتها تطلق زرقاً أخضر ما لبث أن شكّل مطراً هائلاً أخذت الريح تذروه وتنشره حتى ليغدو وكأنه قادم من جميع الجهات. ومنذ الدقائق الأولى كان من الواضح لفتى الديك الرومي أن حمائمه لن تحتاج لأكثر من يومين لتغرق البلدة بأسرها بأناسها وبيوتها وشوارعها بالبراز.

والحق أنه مع مرور الساعات حال زرق الحمام المستمر بلا انقطاع إلى واقع لا يطاق ومشكلة حقيقية في حياة البلدة. فوجئ به الناس يتساقط فوق الرؤوس والأكتاف، وعلى جدران المنازل،

وزجاج النوافذ وبسطات الباعة وواجهات المتاجر. وبعض الحمائم الثملة كانت تدخل الحجرات وتطير في فضاءاتها تاركة زرقها فوق قطع الأثاث والمقتنيات الخاصة وطناجر الطعام والصور الفوتوغرافية واللوحات المعلقة على الجدران، وأوراق المكاتب الحكومية.

استمر ذلك في اليوم التالي إلى درجة أن الناس الذين وجدوا أنفسهم في معركة صامتة مع هذا النوع من المطر، باتوا يتحاشون أقل حركة خارج بيوتهم خصوصاً في حالات تهيج تلك الطيور. وإذا تحرك في الفراغات المحيطة أشخاص قليلون فإنهم يتحركون تحت المظلات بلا ملامح أو هيئات، وسرعان ما تبتلعهم أبعاد فاترة متماوجة بأبخرة والتماعات براز الحمام.

نظر أدهم أفندي إلى فتى الديك الرومي الجالس على الأرض لصق المقعد كأنه مسمّر على خشبة تعذيب وحول رأسه ضمادة عريضة حمراء يابسة من أثر الدم الذي تجلّط فوقها، وبدأ ينصحه ببعض الكلمات الطيبة بأن يصفح عن البلدة ذنبها. حتى أن ذلك قد لا يبدو عادلاً لأن من قام بذبح الديك وأكله هو شخص أو مجموعة أشخاص وليس أهل البلدة جميعاً. لكن الفتى لم يعر أذناً صاغية لكلمات من يحبه أكثر من أي شخص على وجه الأرض، لأن قوة سوداء كانت تملك أعماقه فلا تبيح له سماع أي صوت إلا صوت الانتقام. تأمل كلماته في البداية، لكنه سرعان ما حاصرته للتو وجوه قرمزية محمومة ونظرات فظة كدرة وأفواه بأسنان صدئة تلوك لحم الديك الرومي مثل غربان الرمم حينما تنقضّ على جثة متفسخة:

ـ جميع أهل البلدة متشابهون عم أدهم، وقد أكلوا ديكي

جميعاً. كان عيني اللتين أرى بهما الدنيا، ومعه كنت أفكر بأشياء لذيذة.

امتلأ قلب أدهم أفندي بالعطف عندما قال الفتى ذلك. هو نفسه قسّم البشر ذات يوم إلى مستويين خارج التقسيمات الطبقية والعرقية المعروفة: إلى أناس يحلمون، وأناس لا يحلمون، وكان دائماً مع الحالمين لأنه لولاهم لما كان هذا العالم موجوداً. ولقد سبق للفتى أن حدثه عن حلمه بالسيرك الجوال، وكان هذا الأمر جديداً عليه كل الجدة، فما عرف ما يقوله له سوى تلك الفكرة التي تداعت إلى ذهنه بشيء من السخرية المرّة، تلك السخرية التي يلجأ إليها عادة عندما يريد أن يخفي انفعاله:

ـ الحياة هي أعظم سيرك في العالم، متنوع ومثير، مضحكٌ ومبكٍ معاً.

وكان بالأحرى يخاطب نفسه أكثر مما يتوجه بالحديث إليه. لكن عذابات الفتى الآن هي أكبر مما قدر. وعندما لاحظ ذلك حاول أن يعيد له شيئاً من الهدوء والطمأنينة لتبدو الحياة أكثر احتمالاً في عينيه، قال له:

ـ هذه ليست نهاية العالم وسيكون لك ديك رومي آخر. لن تنتهي هذه الديكة إلا بنهاية الحياة.

أجاب الفتى بصورة يقينية:

ـ حتى لو دربت ديكاً جديداً فسوف يأكلونه. إنهم أغبياء إلى الحد الذي لا يفرقون فيه بين ديك رومي وآخر.

سأل أدهم أفندي رتيبة إن كانت قد أحكمت إغلاق نوافذ بيتها درءاً لخطر زرق الحمام، لأن الفتى مصمم على أن يستمر في تأجيجه إلى نهاية القرن الحالي. تقلبت رتيبة في ضجعتها واستنفدت بسهولة كل انفعالات روحها بضحكة معجزة في دفئها وحلاوتها، وقالت:

ـ هذا ما يستحقونه!! لا لم أفعل. بالعكس. ما كان منها مغلقاً فتحته وأشرعت البيت كله لزرق الحمام. كان عليّ أن أفعل ذلك لأن هذا ما أستحقه أيضاً.

وهذا ما فعلته أيام الجراد أيضاً. فتحت جميع أبواب ونوافذ البيت لدخوله. رأت فيه تعبيراً ملائماً لقلق روحها. تركت أسرابه تدخل وتتنزه داخل الحجرات والممرات، وتستقر فوق الأمتعة والأسرّة والثياب والنوتات الموسيقية لا لتملأ البيت الخالي بزخارف حية كانت تنقصه دائماً وحسب، وإنما لتملأ بها جوانب نفسها البشعة التي لم يعد يعذبها العذاب نفسه إنما مواجهة هذا العذاب وإدارته.

فمنذ زمن استأنفت حياتها البيتية بوقاحة غير مألوفة، وما فتئت تصطنع أمام زوجها عازف الكمان صورة المرأة الغريبة المتهورة التي لا تكاد تقوم بعمل وتندم عليه. تنتقل داخل البيت بأثواب شفافة لا تستر إلا القليل القليل من عريها وهي تدندن بأغانٍ تحبها. ومنذئذ صارت شديدة الاعتناء بنفسها. فبعد الحمامات العنيفة كانت تقضي أكثر وقتها في التجمل والتزين والتأنق استعداداً للذهاب إلى أدهم أفندي بكل الوسائل التي تجعل الأنثى جذابة ومكتملة الأنوثة. تجلس أمام المرآة وتزجج حاجبيها وتسرح شعرها وتصنع خصلاً صغيرة فوق جبينها على شكل أقمار

بكريمات مثبتة، ثم تزين وجهها بالكحلة والحمرة وأحمر الشفاه، ثم تلمّع أسنانها بمعجون أسنان له مذاق النعناع. كانت تقول لأدهم أفندي إن هذا يمنحها الإحساس بأنها عاشقة سعيدة. لقد أخرجت من خزانتها ثيابها الأنيقة ذات الألوان الفرحة التي لا ترتديها إلا في المناسبات الخاصة واحتفالات الأعياد لتعارك معها بلا أسف طقوسها المجنونة على الأرض أو فوق السرير وتحت الشراشف. وحرصت كل يوم على تبديل شلحاتها وثيابها الداخلية التي تخزنها بعد الغسيل مع نفحات من عطور باريسية تختارها بنفسها. حرصت على ذلك لأنها رأت فيه ضرباً من صميم الحياة الغرامية التي بدأ أدهم أفندي يفرضها عليها، وتوافقاً مع إحساساته الخرافية القديمة برائحة النرجس التي تنضح بها.

أما زوجها المهجور الذي بدت قسوة الإهمال واضحة عليه، إذا حدث واستوضحها عن أمر تقوم به، فسرعان ما كانت تسحقه بنظرة عجلى، ثم تضحك بأعلى صوتها وتمطره بوابل من السخريات المسمومة، فما يبدر عنه هو سوى الصمت. يصم أذنيه خوفاً من أن يسمعها تعلن أمامه صراحة ما تحس به من عاطفة حقيقية تجاهه والتي لا يمكن أن تكون غير عاطفة الكراهية والاحتقار العميق. ويغلق فمه بسبب الطاعة وحدها كي لا يخسر بإحدى حماقاته غير المحسوبة الدجاجة التي تبيض له ذهباً.

تذهب إلى أدهم أفندي مكتظة بهواجس وأفكار قديمة. وتكتفي بالإحساس أنها كلما ضاعت في التفكير فإن وجوده إلى جانبها يساعدها على أن تجد نفسها. لقد وصلت علاقتهما إلى درجة من الصفاء بات كل منهما فيها على قناعة لا يبوح بها للآخر، بأن الإنسان يكون في حال أفضل لو خلق دون تلك الغرائز

الجسدية المنحطة. فلا تكتشف هي زيف تلك الفكرة إلا عندما تبدأ أختام العجوز بالشغب فوق مناطق متزايدة الهشاشة من بشرتها الظامئة المتأهبة لعبث الخيال. تبدأ مستسلمة لها ملأى بالأشواق المبهمة كأنها تنقل إليها عقاراً مهدئاً للروح. ما عادت الأصداف والحراشف المخيفة تغطي جسدها بل الشفاه الصغيرة التي لا تحصى، وما عادت هي تهتم لآفة الترصيعات الجانحة بعدما اكتشفت أن ذلك يترك فوقها أثراً خلاّقاً ويحيلها إلى عاشقة بربرية. تذهب معها شيئاً فشيئاً في دوران النفس إلى أن تهزها من الأعماق اندفاعات شهوانية صرفة، ثم لا تلبث أن تدرك من استسلامها الحنون أن ذلك القناع المخادع عن مثالية الجسد آخذ بالتفكك والذوبان. ولا بد أنها تنبأت بأن ذلك لن يستمر حتى النهاية دون أن يترك بصماته عليها. ويكون تقديرها صحيحاً حين تنجح بالتحكم بحيويتها واستعادة نفسها قبل اقتراب النار المجنونة بقليل من التحايل وبصبر لا يعادله صبر آخر.

قليلة هي المرات التي وصلت إلى ذروة المتعة مع زوجها عازف الكمان. وعلى قلتها، كانت ترافقها نشوات هشة مخزية تكاد تكون تعابير مصطنعة لنشاط وظيفي يمليه عليها الواجب أكثر مما تمليه الحاجة الطبيعية. وعن قلة حيلة وطدت نفسها للعيش داخل هذا الاختبار السلبي المرهق إلى حد باتت تشك فيه بأنها جفّت وماتت عواطفها. لكنها مع أسلحة الشيطان تلك، المتمرغة فوق جسدها، سرعان ما عرف فراغها الروحي المبهم امتلاءً خالصاً بمزيج غريب من العاطفة والحسية المباشرة. انساقت معها بإفراط كأنما تطارد وحشاً في الحلم، ومعها باتت خائفة من أن تفقد رفقة العجوز، وكلما فكرت بحب زوجها أو لمساته الحمقاء يصيبها الدوار.

ذات مرة سألت امرأة مجربة من نسوة الحي تقرأ المستقبل بفناجين القهوة، عن الأساليب التي يمكن أن تقهر بها امرأة بلا رجل غرائز الجسد، فنصحتها هذه بالطعام. دربتها على أكل الطعام في فراش النوم، وأن تمضي وقتاً أطول في مضغه بتأمل وتركيز شهوانيين لتحوّل طاقة الطعام إلى متعة جنسية خالصة فتستغني بذلك عن الرجال. جربت رتيبة ذلك فكانت تبدأ طعامها الطقوسي منفعلة منسجمة مع ذاتها وهي تمضغ متمهلة متأنية، فما تشعر بعد ذلك إلا وكيانها يفور بالرغوة وأن طبيعتها الجديدة غدت أشعة ساطعة، وتتسرب إليها وفي جميع أرجاء جسدها رعشة لذيذة يصعب تعليلها لأنها كانت مع شخص مجهول وذلك المجهول لم يكن إلا هي. لقد اكتشف أدهم أفندي وهو يتقصى طباعها وعاداتها حبها الشديد للشوكولا. تأكلها بحس شهي ولذة غرائزية، فما يراها إلا وهي تأكل الشوكولا أو تتحدث معه عن شوكولا رائعة تأكلها. ومنذئذ وهو يجهل السبب، حرص على أن يكون لديه مخزون من الشوكولا لا ينضب من جميع الأصناف بما فيها أخيراً شوكولا مزنة.

في تلك الأثناء لاحظ فتى الديك الرومي أن بوادر الاضطراب بدأت تظهر في يوميات العجوز مزنة. وذلك منذ أخذت ساعات أرقها تطول ويصبح نومها مقتصراً على إغفاءات عابرة. لم يعد خروجها من بيتها محدداً بأوقات معينة منتظمة بل بات مرتبطاً بعدد الساعات التي تحددها صحوات الأرق لديها. معاناتها الحقيقية كانت في أنه يتعين عليها أن تقطع الساحة العامة وعدة شوارع وأزقة لتبدأ طريقها المهجورة باتجاه ليلة القدر المنتظرة. فقد باتت تشعر بالشوارع والأسواق ضيقة ومجافية وذات ضوضاء موحشة، ولهذا تختار الساعات الميتة التي تبدو فيها البلدة وكأنها

لا تحيا، لتخرج إلى البرية الخالية والمنيرة إلى حد مدهش، ثم تجلس هناك بانتظار الإشارات المنبئة عن تلك المعجزة.

حقل عادي ومهجور مفصول عن بقية العالم وكل ما عداه من مبانٍ مترامية يبدو بعيداً ومنطفئاً. كل ما يمكن رؤيته في الأطراف وعلى أبعاد متفاوتة هنا وهناك، بعض الشجيرات المتوحدة والتلال الصخرية المدببة، وأقرب منها تتناثر أدغال من الصبار الصحراوي الخرافية وبعض الجروف الكلسية التي تصر فيها الزيزان وتتصاعد منها على الدوام تنينات هوائية محملة بالغبار تمسح الأفق وتسد مجال الرؤية أحياناً.

قليل من أهل البلدة من كان يعرف أنه في هذا الحقل بالذات ومع بداية الوجود الفرنسي في البلاد، قام حشاش مغامر يدعى أزمور الزمرلي، بزراعة نبات القنبز الذي تستخرج من أزهاره حشيشة الكيف. وأنشأ لهذا الغرض حجرات خاصة لتجميعه وتصنيفه تحت سمع الحاكم العسكري الفرنسي وبصره بعدما رشاه بنسبة من أرباح المشروع. ظل الحقل يزرع بهذا النبات الشيطاني طيلة الوجود الفرنسي الذي استمر ربع قرن من الزمن، وازدهرت تجارته خارج الحدود الوطنية. لكن بعد الاستقلال مباشرة ألقت الحكومة المستقلة القبض على ذاك الحشاش المغامر وصادرت الحقل وهدمت حجراته، وتجنبت إذاعة النبأ حرصاً مبدئياً منها على نشر معلومات تتعلق بالممنوعات وطرق الحصول عليها، لأنه ما من شعب آخر يمكن أن تستهويه الممنوعات بقدر ما تستهوي شعب هذه البلاد. لكن من كانت لهم ذاكرة طيّعة ويجهلون السر، كانوا يتذكرون بمخيلات نيّرة أنهم ما مروا يوماً بين مزروعاته أثناء تفتح أزهارها إلا ورأوا أسراباً من البط البري

تلهو وتمرح في سماء الحقل وتطلق صيحات شبيهة بالقهقهة وقد دمرتها سعادة مجهولة الأسباب. ومن هنا جاء اسم الحقل: حقل البط السعيد.

رآها في الطريق المؤدية إلى الحقل. لقد اختلطت عليها الجهات وتداخلت حدود الأشياء، وفقدت الإحساس بالتقدم، فوقفت صامتة متحجرة وسط إشعاعات الظهيرة المتماوجة، رافعة منديلها بذراعها في انتظار قدوم أحد لإخراجها من متاهتها. أوصلها فتى الديك الرومي إلى الحقل، ومن هناك مضى إلى غايته.

بعد خسارته لديكه الرومي أصبحت يومياته مملة وتافهة. حتى أنه منذ زمن فقد الاهتمام بمقصورة هيلانة وتوقف عن الذهاب إلى هناك. منذ بداية عروض الفتاة داخل الحافلة، كان واحداً من أولئك الفتيان الحيارى الذين يأتون وهم يسعون إليها بخيالهم، ثم يغادرون المكان ورؤوسهم طافحة بأجزاء مبعثرة من جسد أنثوي يصعب تفاديه. جسد معجز في اكتماله وخارق في جماله وجاذبيته يحيل حافلة هرمة تقع في مؤخرة العالم إلى مكان مسحور. فجأة وهي تقشر نفسها من ثيابها منزلقة في فضاء المقصورة المضاء بالشموع بألاعيب جسد جريئة ومبتكرة، ثم وهي تقبض على عش طائرها بملء اليد، كان فتى الديك الرومي يحس بأنفاسه أمام الكوة تتلاحق متسارعة وبيديه تهتز حركتهما في انتفاضات متتالية صماء، وبرأسه يشتعل برغبة وحيدة لو أن الكوة تتحول بلمسة سحرية إلى باب واسع. كان احتكاكه بهذه الملامح نشوة دامت عدة شهور. وجد غرامياته عند حدود النظر تلك ممتعة وكافية. يتسرب إليه خيالها مجزأً ممزوجاً بنفحات بهية من عطر غريب تحييه في كل حركة تؤديها أصوات ناعمة

تسمع وأشياء ترى وأخرى تبدأ بالظهور. لكأنه يقف أمام صورة فوتوغرافية ممزقة إلى عشرات القطع الصغيرة وعليه أن يعيد ترتيبها وتركيبها من جديد. شيء وحيد أزعجه في تلك الفترة هو أن تلك الفتاة هي متعة عمومية يشاركه في اكتشاف أسرارها آخرون من كل صنف. فما عاد يرى سوى زوغان الأعين النهمة العكرة تنزلق فوق خطوط ومنحنيات جسدها العاري ناشرة حولها أفكاراً خرقاء وغرائز منحطة. وكلما أمعن في استجرار التفاصيل في تأملات متفرقة من العزلة كلما ازدادت الفتاة بعداً عنه وطفا جسدها في مخيلته لا كما يراه هو إنما كما يمكن أن يكون في مخيلات الآخرين. وكانت صورتها قد بدأت تهتز ويخبو بريقها عندما اكتشف أنها مجرد فتاة بلهاء لا يمكن أن تكون على مقاس أحلامه.

فذات ظهيرة قاده حب الاطلاع إلى زيارة المقصورة خفية ليعرف كيف تعيش المرأتان خارج حياة المقصورة الليلية. كانت العجوز هيلانة تنشر الغسيل على حبل ممتد بين جدار الحافلة وشجرة قريبة، والآن أمسكت بخناقها نوبة سعال شديدة بسبب التدخين جعلتها تتمسك بالحبل وتدير جانباً وجهها الشاحب الذي أبلاه الزمن إلى أن انتهت النوبة. وكانت الفتاة تجلس على الأرض أمام مرآة عريضة مستندة إلى قاعدة الحافلة. وقد لطخت وجهها بالأصباغ وبالغت في تلوينه بالمساحيق فبدت سخيفة وممكيجة مثل كاريكاتير مهرجة سيرك، وهي تحدث نفسها بأسلوب المجاذيب. وذات عصر آخر رآها تتجول وحيدة بأذنين وذنب أرنب من قماش وقد اتسخ سروالها بالطين، متنقلة بين أرجوحة شاغرة منصوبة في العراء تهتز كما الانزلاق في الهواء الفارغ وحولها أكوام مبعثرة من عجلات السيارات المستهلكة، وبين حين

وآخر تطلق عدة صفرات متلاحقة خلاعية كصفير فتيان الأزقة. آخر مرة ذهب فيها إلى هناك، رأى الجدة تحرق كومة من الرسائل التي يلقيها الفتيان للفتاة من كوة الحافلة في غفلة منها، دون أن تتطلع على مضامينها. وخلفها غير بعيد عنها، رأى الفتاة مذهولاً وهي تقضم سروالها وتتبول وقوفاً كالرجال.

كانت صدمته كبيرة، الفتاة التي كانت تلهب خياله حطمت في نفسه الميل إلى التأمل وكفت عن أن تغريه أو تؤرقه بعد ذلك. آل إلى الاعتقاد بأن فرضية الجدّة التي بنت عليها فكرة التعري المأجور داخل المقصورة كانت فرضية صحيحة، لأن حفيدتها هذه خلقت للنظر فقط، ولن تكون شيئاً إذا لم تخلع ثيابها. أثارت اهتمامه على الدوام كثرة الأعلام الأميركية التي تزين بها المرأتان جدران الحافلة الخارجية. أعلام من مختلف الأحجام مصنوعة من مادة لامعة لاصقة لا تتأثر بالحرارة أو الرطوبة. ولذلك تظل متماسكة ومحتفظة بألق ألوانها الزاهية رغم تقلبات الطقس.

والحق كان لهذا العلم بخطوطه الحمر ومساحته الزرقاء ونجومه البيض العديدة، أساس في ذاكرة الفتى يعود إلى عهد طفولته المبكرة، فلم يكن إعجابه به وليد الساعة. لقد أعجبه حين رآه على حواف الملابس القديمة المستوردة من أميركا التي كانت تشتريها أمه من باعة البالة ثم تعدلها عند الخياطين على مقاسه. أو على سترات جنود المارينز التي كان الشبان الكبار يرتدونها ويتفاخرون بنجومها وشاراتها في الشوارع. ثم أحس به بقدر أكبر عندما رآه مطبوعاً على آلاف أكياس الطحين والحليب المجفف التي تأتي إلى البلاد على شكل معونات إنسانية وتوزع على الأسر الفقيرة. جميعها كتب عليها «هدية من الشعب الأميركي الصديق»

وفي الأعلى يبرز العلم الأميركي بألوان طباعية وإلى جانبه يدان صديقتان تتصافحان بحرارة أبدية. هذه الأكياس المصنوعة من نسيج الخام الأبيض الناعم، كانت النساء يخطنها سراويل لهن على شكل شورتات مريحة. ولأن القص لم يكن منتظماً ودقيقاً دائماً، غالباً ما كانت أحرف الكلمات والخطوط والمساحات اللونية تظهر متقطعة ومتداخلة بين أوراكهن وداخل أفخاذهن. وبالطبع عندما كان فتى الديك الرومي يلمح تلك السراويل لنساء يقتعدن الأرض في أفنية دورهن قعدات جريئة، ما كان ليبحث عن اكتمال الأشياء فوقها بقدر ما كان يبحث عن الأسرار الكامنة خلف تلك الرسوم المتقاطعة والاختمارات الني تنبئ عنها، ظاناً بأن الأمر لا يمكن أن يكون طبيعياً هناك إلا إذا كان على تلك الصورة المربكة التي حددها مقص الخياطة. جاءت بعد ذلك الأفلام السينمائية التي كان يتخللها من وقت لآخر أعلام أميركية خفاقة وحوادث عنف كثيرة ونساء جميلات.

ـ سأسافر إلى أميركا.

سأله أدهم أفندي مستغرباً:

ـ ولماذا أميركا بالذات؟.

أجاب الفتى:

ـ الجميع يقولون إن الحياة هناك عيد دائم. والسيرك الجوال يعمل بشكل أفضل في مواسم الأعياد.

كان صديقه الصغير، كما يحب أن يناديه، فيه رقة غريبة على بلدة بائسة فيها كل شيء مستوحش. له شعر نحاسي منتثر على

جبهته بفوضى وعينان مفتحتان على سعة كعيني فراشة حالمة. وكلما ركز بصره في وجهه الفتي يهيمن عليه شعور بالتأمل مريح. في بداية تعارفهما سأله عن سر هوايته بتربية الطيور، فبين له الفتى بأن الطيور تستطيع أن تكون جميلة ما عدا الإنسان، فهو عاطل من الجمال. جميع الذين يعرفهم خالون تماماً من المرح وتبدو دائماً على سحناتهم خيبات العمل غير المجدي. أناس ثيابهم رثة وفكرهم بطيء ويشيخون قبل الأوان، بينما تستولي على بقية ساعات العمر الخرافات والأوهام والأحاديث المكرورة والخوف الأبدي من نفاد الطعام.

عاش طفولته وحيداً مغلقاً على نفسه في عزلة دائمة بين مدرسة لا شيء فيها يفهمه أو يحبه وبين بيت كئيب موحش انقلب أهله إلى أموات يعيشون الحياة عقاباً. أول قرار شخصي اتخذه كان الانقطاع عن المدرسة، فتركها في مرحلة مبكرة وحزم أمره على ألا يعود إليها أبداً. فكر، لقد حصل على الحرية أخيراً. فالحياة مهما تكن في البلدة خاوية ورتيبة تظل أقل مقتاً من الحياة في ذلك المكان المغلق مع دروس مضجرة ومعلمين قساة ذوي أفواه كريهة الرائحة وفتيان متسخين ذوي عيون متقرحة بالملاريا وبطون مصابة بالزحار، وآخرين تسبح الدودة الشريطية تحت سراويلهم الطويلة. بدلاً من ذلك وجد متسعاً من الوقت لكي يتجول في الشوارع والبراري الشاسعة ويحلم بلا رقيب وينفق كل طاقة روحه على تدريب تلك المخلوقات الخرساء اللطيفة والتعايش معها.

لا يعرف أدهم أفندي على وجه الدقة من أين جاءت الفتى فكرة السفر المفاجئة هذه إلى أميركا. قدّر أن فكرة السيرك الجوال جاءته من السحرة ومرقصي السعادين ومروضي الحيوانات

المفترسة كالفهود والضباع والذئاب المخرطمة، الذين يؤمّون البلدة في الأعياد ويقدمون عروضهم المأجورة داخل خانات مظلمة تعطي المتفرجين الإحساس بأنهم باتوا داخل غابة خطرة. ولا شك أنه كان يفكر مثل الكثيرين من شبان البلدة الذين باتوا على قناعة بأنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً هنا ولكي ينجحوا عليهم أن يرحلوا عنها. أما فكرة السفر إلى أميركا بالذات، فما كان لديه ما يعزوها إليه سوى مقصورة هيلانة بعدما نقل إليه الفتى صورة الأعلام الأميركية التي تزين بها العجوز جدران المقصورة الخارجية. اكتفى بالربط بينهما بعلاقة ما. ثم لم يتوقف عند الأمر طويلاً. سرّه أن يحلم الفتى من جديد بعد خسارة ديكه الرومي لأنه ما من قلب يمكن أن يتألم إلى ما لا نهاية ما دام أن صاحبه يبحث عن أحلامه. وكان حريصاً دائماً على ألا يثقل روح الفتى بنصائح العجائز ومواعظهم، لكنه قال له:

ـ إن كنت مصمماً على السفر فاذهب. ولكن إذا كان عليك أن تذهب إلى مكان فعليك أن تعرف ما الذي ينتظرك فيه.

كان يعتبره فتىً مميزاً، ويحلو له أن يشبهه بالطائر الذي يحلق خارج السرب. فأقرانه في المدارس الذين يخطون خطواتهم الأولى على طريق التكون يبدون لأدهم أفندي وكأنهم يهلكون أنفسهم من أجل السخافات وحدها. يخرجونهم إلى الشوارع والساحات العامة ليهتفوا بالشعارات التي اهترأت من كثرة الاستعمال. ويصفقوا للخطباء الحزبيين الذين باتوا يتصدرون الحياة السياسية في البلدة ويحضون على الكراهية وإلغاء الآخر لأنهم لا يستطيعون تصور بشر يفكرون بطريقة مغايرة لهم. إنهم يتعلمون ثقافة الصخب بدلاً من ثقافة التأمل، ومن أجل هذا تفقد الحياة قيمتها

وتتبعثر في صراخ وكلام. حتى عندما يقيمون منصات الخطابة والتمثيليات الهادفة والأغاني الوطنية وسط الضجيج والأضواء والزينات لا يبدو أن هناك أشخاصاً يودون أن يكونوا سعداء، بل أناساً يحتفلون بفقرهم وبؤسهم وخوفهم على نحو ناقص وغوغائي. عندما يرى أدهم أفندي هؤلاء الشبان يتصرفون بهذا الشكل لا يعرف ماذا سيحل بهذه البلاد على أيديهم، ويظل ينقصه اليقين بأن أموراً كالمعجزات سوف تحدث، ذلك أن الذين يتسلحون مبكراً بشبح السلطة وحدها سوف يعانون من نقص الولاء للمستقبل.

هذا ما كان يفكر فيه أدهم أفندي عندما وصل بأختامه إلى حدود السرة. غياب فتى الديك الرومي عن البيت طيلة النهار شغل باله قليلاً. ومرت لحظة اختلط عليه الأمر فلم يعد يتذكر بدقة ما إذا كان ما فكر به خلال الدقائق الماضية فكر وبه وحسب، أم أنه قاله لرتيبة بصوت مسموع. سألها إن كانت تصغي إليه فأجابت: لا. لأنها كانت هي التي تتحدث وهو الذي كان يصغي إليها. وفي الواقع كان الاثنان يتحدثان بصوت مسموع، إذ لم يعد من النادر أن يتمتم كل منهما بأشياء من هواجسه دون أن ينتبه إليه الآخر.

فجأة أضيء ممر الشرفة بأنوار عابرة خافتة تسللت إليهما عبر شقوق النافذة. نهد أدهم أفندي لاستطلاع الأمر، بينما وضعت رتيبة روب النوم الرجالي فوق بدنها وفتحت النافذة. وقبل أن تستوعب ما يجري هناك رأت مشهداً حياً من الغرابة لا يبدو أنه من حقيقة هذا العالم، فأطلقت حنجرتها صيحة رعوية واندفعت إلى الخارج بنشاط صاخب.

كان فتى الديك الرومي في نهاية الممر تحف به من كل جانب وعلى رقعة واسعة من الأرض أضواء سحرية متحركة. لقد أمضى نهاره ذاك في تجميع أكبر عدد ممكن من سلاحف الجداول وضفادعها. ثبّت على دروع السلاحف شموعاً ضخمة بشكل محكم، ودهن الضفادع بمسحوق فوسفوري مضيء، وانطلق بها زاحفة متقافزة حوله فوق أرض الممشى باتجاه الحجرة التي يقضي فيها أدهم أفندي ورتيبة أفضل ساعاتهما. ناداهما:

ـ لا تخافا هذا أنا.

ووصل إليهما داخل أضواء الشموع والضفادع المشعة كملاك متنكر. سأله أدهم أفندي مستغرباً:

ـ ما هذا؟

أجابه الفتى:

ـ احتفال خاص بيوم التاسع من آب. إنه يوم ميلادك.

حدق أدهم أفندي في حقل الأضواء المتناثرة موجة إثر موجة ببلاهة، وأحس فجأة باندفاعة فزعة من الأفكار، إذ كلما تذكر يوم ميلاده سيضطرم في نفسه وإلى الأبد ذلك القلق من مرور الزمن. لكنه لم يدع الألم يطغى على المرح الذي بدأته رتيبة في دوران عاصف داخل ذلك الحقل المسبوك من اللهب والزجاج مخلفة حولها في الهواء نغمة كما صفير الأسهم أو جلبة المحارة البحرية. لقد استيقظت في داخلها طباعها الغجرية فغامت في زهوة الفرح ولذة الابتذال وارتجاف الضوء، واجدة في تلك الألاعيب المسائية جزءاً من أحلام اليقظة التي تكون فيها مجنونة بأمان، وتستطيع أن تبقى فيها سوية طوال النهار.

وفيما هو يتفحص كل حركة صادرة عنها متشوقاً كأنها ستتفجر إلى أشلاء في أي لحظة، ودون أن يحيد ببصره عنها، جهد في تحريك فكيه لقول شيء ما لفتى الديك الرومي، فخرج صوته سابحاً في غيبوبة النشوة:

ـ لقد نسيت ذلك. وإن كان بوسعي أن أنساه فالأفضل أن أفعل ذلك دائماً.

8

حلّق طائر بحري وحيد فوق قمم الجروف الصخرية، وأطلق عدة صيحات معدنية رنّت في الفضاء الفسيح وخلّفت وراءها شعوراً تعساً إلى حد الإيلام. كانت الأمواج هادئة في رقة ومرحة الزرقة. وكانت عدة زوارق صيد منتشرة عند خط الأفق حيث تتحول المياه المصقولة هناك إلى زرقة كثيفة مكللة بالتماعات شمسية فضية، وتعبر فوقها سحابات بيض ناشطة زاحفة من الغرب كأراجيح نوم. صيحات الطائر شوشت ذلك المهرجان اللوني الهائل، وبددت تأملات أدهم أفندي وجعلته يتصل بالحقيقة المرّة، إذ إنه مهما كانت المرأة التي يعيش معها أحلى ساعات عمره، فهو في النهاية يعيش وحيداً.

منذ زمن لم يلتق الناس ولم يحس بهم ولم يشارك في أعراسهم. لم يسألهم عن أحوالهم ولم يسألوه عن البريد. تمر ساعات يشعر

فيها كأنه يطفو فوق الواقع في منطقة من فقدان الإحساس حيث لا سعادة ولا حزن، مجرد شعور بفراغ النفس كأنما لم تولد فيها أفكار ولا عواطف ولا ذكريات. نوع من العوم فوق الأشياء والتأرجح مع الريح كتحليق ذلك الطائر الوحيد فوق أبنية وخرائب وشطآن وغابات وأعشاش متناثرة هنا وهناك، فلا تعرف قائمتاه أين تحطان.

هذه الحالة كانت تقلقه في زمن مضى عندما لم يكن لديه ما يفعله وهو حبيس منزله، سوى مواجهة خيالاته الرهيبة مع أختامه البريدية، وأثناء القيلولة ضبط عقارب الساعة الحائطية وإملاء مسنناتها بالزمن. وإذا حدث ورغب في نزهة خارج المنزل، غالباً ما كان يطرق سبيله عبر تلك الشوارع البلهاء وظلال البيوت الكالحة الشبحية التي عملت فيها عاديات الزمن تخريباً، دون أن يعرف إلى أين ستقوده قدماه. راغباً في أن يذهب في حياته مرة واحدة إلى مكان حقيقي دون أن يهتدي أبداً إلى المكان الصحيح الذي يجب أن يذهب إليه.

اليوم اختلف الأمر. وهذه الحالة لم تعد تقلقه إلا في غياب رتيبة. لن تأتي اليوم لأمر ما كما أخبرته في الأمس. ومن دونها تغدو وحدته أشد. لكنه منذ الصباح قوّى قلبه بالذكريات حين ألحّت عليه صورة هيلانة كاملة، وساعده ذلك ولو قليلاً على تصفية الأجواء بينه وبين نفسه التي تصيبها أحياناً لحظات من الحيرة من توقف الحياة. تذكرها وهو يحلق ذقنه ويفكر بما قالته له يوماً: التقدم في السن ليس بحاجة إلى مكان يختبئ فيه. ثم تذكرها وهو يشرب قهوته في حديقة الدار حيث تتصاعد من النباتات الرطبة حوله رائحة الاستسلام مصحوبة بنكهة عطرة من تبغ

الغليون الذي يدخنه. ثم تذكرها وهو يودع في درج طاولته رزم المال الجديدة اللازمة لاحتياجات رتيبة إثر كل لقاء.

لقد مضى على رؤيته لها آخر مرة ما يقارب العشرين عاماً وهي موجودة في البلدة دون أن يجد سبباً واحداً كافياً يدعوه للقيام بزيارتها. أحياناً كان يتذكرها في وقائع متفرقة ومجزأة لا اتصال فيها، لأنها كانت المرأة الأولى في حياته التي أثارت في داخله بإصرار تصورات حسية مروعة عن الجنس استهوته طيلة فترة طفولته وشبابه الباكر. ولكنها بمرور الزمن تحولت إلى أجزاء بعيدة أشد تشوشاً ونأياً وكلما حاول بناءها في ذاكرته كان كل شيء يبدو ممحواً، فلا يكاد يميز هنا أو هناك سوى صور ووقائع باهتة عن مخلوقة شهوانية جموحة حملت معها الفحش إلى هذا العالم منذ ولدت وظلت تملك الشجاعة على أن تعيش خيالاتها بلا حدود أو قيود حتى اللحظة الأخيرة من حياتها. أما لماذا بدأت تلح على ذاكرته في الفترة الأخيرة بهذه القوة، فليس لديه سوى تفسير وحيد لذلك هو مقصورة حفيدتها السرية ذات الأعلام الأميركية التي كان فتى الديك الرومي ينقل إليه أخبارها أولاً بأول.

تتصل البلدة بالميناء والشاطئ عبر شوارع وأزقة ضيقة ومتعرجة تنبعث من جدران وقناطر أبنيتها القديمة رائحة القرون. قطع الطريق من بيته إلى الشاطئ بقلب مفتوح ومفاصل متماسكة في محاولة لمقاومة الإحساس بالشيخوخة الذي يتعمق كلما فاض به الحنين إلى الماضي. كانت الشوارع والبيوت قد بدأت تهدأ بالتدريج استعداداً لرقاد القيلولة. بينما انطلقت من جوانب عدة من السوق المتكاسل بعض أغاني الإذاعات قاطعة ذلك السكون ملقية

عليه ظلالاً من الدعة والتأمل. أشياء بعيدة منسية بات يتذكرها عبر الأمكنة. لو كانت العودة إلى تلك الأزمنة الميتة وإلى تلك الوجوه التي ألقينا عليها النظرة الأولى ممكنة كالعودة إلى الأمكنة ذاتها، لكان الرجوع إلى سابق الأحوال أمراً سهلاً.

تلك هي الطريق التي كانت هيلانة تقطعها ذهاباً إلى السوق وإياباً منه لشراء أغراض البيت. وكان هو ينتظرها في الشرفة ليراها قادمة من بعيد ويتمعن طريقتها المغرية في حمل جسمها أثناء المشي. ومن تلك الشرفة رأيا معاً لأول مرة علم الثورة العربية الكبرى ذا النجمة ثمانيّة الأضلاع، الذي جاء به كومندان مدفعي يدعى نوفل التمروق، على رأس فرقة من الجنود هي جزء من جيش الثورة المنتصر على الأتراك، والنواة الأولى للجيش الوطني المعد لمهمات عهد الاستقلال الوشيك.

خرج أهل البلدة بأسرهم لاستقبال المنتصرين في حشود صاخبة وسدوا طريقهم بالهتافات والأناشيد والرقص بالسيف والترس، وبجوقات طبول عليها أكاليل زهور وأبواق لها شرائط ورايات ملونة. وأطلت النساء من النوافذ والشرفات والأسطحة ينثرن الورود والأرز وماء الكولونيا فوق الرؤوس.

كانت هيلانة تقف في الشرفة إلى جوار أدهم أفندي متأرجحة بجسدها الفتي الرشيق، متوهجة بثوبها اللامع الرقيق الذي كانت الأم تنبهها إلى عدم الظهور فيه، فهي جميلة وهناك معجبون كثر تتوجه أنظارهم إليها، ورؤيتها بهذا الثوب المكشوف على مساحة واسعة من صدرها مدعاة لأفكار مشينة خرقاء. رآها الضابط المدفعي القادم من غبار الصحراء ودخان البارود وميزها بفتنتها

القوية عن الجميع. رفع نحوها نظرة حب متآمرة وسط الزحام ثم ودعها بإشارة وداع من يده. وكان مثيراً مروره في شوارع البلدة إلى جانبه مدفع وبيده العلم لكل من رآه.

لم يتابع طريقه في ذلك اليوم نحو الشمال لاستكمال مهمة التحرير. خيّم بفرقته في سهل قريب من البلدة وأمر فصيلاً من جنوده بإطلاق نيران مدفعيتهم في الهواء تحية شكر لأهل البلدة الذين احتفلوا بمرور فرقته في شوارعهم على ذلك النحو المبهج. ضرب لنفسه خيمة منفردة في العراء بلا جنود حراسة ثم جهزها بسرير ترحل وفانوس هوائي شديد الإضاءة ولا شيء آخر. وفي الليل أرسل وسيطاً لهيلانة يبلغها عرضاً لزيارته مقابل مبلغ سخي من الذهب الإنكليزي، ويؤكد لها أن إطلاق المدفعية كان على شرفها. جنّت هيلانة بحب يبدأ بهدير المدافع، ودون أن تفكر مرتين تسللت خارجة من البيت ومضت إلى خيمة الكومندان سراً حسب التعليمات المكتوبة على ورقة سرية.

في ذلك العام تركت هيلانة بيت الأفندية وغادرت البلدة ولم تعد إليها إلا بعد عشرين عاماً متواصلة هي الفترة التي انقضت ما بين نهايتي الحربين العالميتين الأولى والثانية. قضتها في أماكن مجهولة لم تبح بها لأحد من أهل البلدة سوى لأدهم أفندي، الذي كان الشخص الوحيد، غير أبيه، الذي يعلم يقيناً أنها ما غادرت بيتهما إلا وكانت تتقن كل فنون الفراش. وكان ذلك خلال لقاء من لقاءين تمّا بينهما في العام الذي تلا عودتها إلى البلدة ولم يتكررا بعد ذلك حتى الآن.

ـ لم ينظر إليّ أحد بتلك الطريقة.

ـ لكنك كنت شيطانة بما يكفي لكي لا أقترب منك ثانية.

أزقة شبه خالية بحركة بطيئة، ونوافذ عليها شبكات من الزخارف الخشبية تمرر الهواء والضوء ولا تسمح برؤية الداخل. أحياناً تظهر هنا وهناك أصص ورد وشجيرات نخيل في أفنية الدور. وملابس منشورة على أسلاك وأقفاص طيور جميلة لا تغرد. عالم أناس تحجروا، وإذا أطلّ رأس بشري من نافذة كانت تسبقه إلى الخارج جذوة نعاس من غرف قيلولة لا تعرف الأحلام.

جميع البيوت تقريباً يعرفها أدهم أفندي من أسماء أصحابها، لقد كبروا وتزوجوا وأنشأوا أسراً بحب وأمل. عملوا مع أبنائهم بجهد شاق كالآلات ليتغلبوا على الزمن، ثم تنازعوا على الحياة وأصبحت زوجاتهم بدينات وباردات يعانين مثلهم من أمراض المعدة والسكري وآلام المفاصل. عاشوا حياة هادئة حفاظاً على المظاهر، فيها استيقاظ مبكر للصلاة وواجبات منتظمة وأعياد دينية من عام لعام، وزيارات أسبوعية لأسر قريبة أو صديقة، وذهاب مبكر إلى النوم. منهم من مات ومنهم من ينتظر الموت حين لا يبقى شيء آخر سواه.

خلال سنوات قليلة حدث كل شيء في حياتهم وتغير كل شيء بقسوة وألم. فالعالم لم يكن في الخارج وحسب، بل في زوايا قلوبهم، وفي ذاكرتهم الخارجة من عصر آخر صقله الزمن برهافة، وعاجلاً أو آجلاً سيبدو لهم هذا العالم فاسداً ومحزناً. ولهذا اختاروا الاعتزال عن الحياة العامة والانضواء في بيوت لا تصلح للعيش، تعشش فيها الجرذان وتحيط بها من كل الزوايا أكوام قمامة مهملة وحفر مراحيض طافحة بأوساخها.

لم يتعرفوا إلا على قدر ضئيل من الحياة. يعيشون بلا طموحات وبلا أفكار راقية، ويشعرون بالبلاهة عندما يفكرون بالسياسة العليا. وكان أدهم أفندي كلما نظر إليهم ورآهم كيف يعيشون لا يقوى على احتمال أن يعيش مثلهم عن مثالية لا عن تعال أو غرور. كان من سلالة قلقة وحزينة. درّب نفسه على العيش كشخص عادي. ولكنه في المقابل سعى دائماً لاكتمال وجوده بأشياء جذابة كالأناقة والجمال والحرية والتأمل والتواصل الحضاري مع الآخرين وإتقان فن البريد. دون أن يكون العثور على ذلك كله أمراً ممكناً على الدوام، لكأنه كان كمن يطلب حياة أخرى موجودة في الجانب الآخر من هذا الكون.

وصل إلى ساحة العيد. فسحة ترابية ممتدة بين التكية السلطانية والقلعة الرومانية القديمة وبداية بساتين البلدة ناحية الشمال. تربة قاحلة مهجورة موحشة يهصرها الغبار والحرارة وتطلق من أحد جوانبها الذباب المتجمع على هيكل عظمي لحصان نافق. في عصورها الذهبية كانت تعج بالناس وتلتهب بالفرح العارم والتسليات الجريئة التي تشحذها الروح الشعبية وتبلغ حدوداً مذهلة. لقد توقف كل ذلك بمراسيم سلطوية غير معلنة تقضي بتجيير جميع احتفالات الشعب وأفراحه وأعياده بما فيها عيد الاستقلال، إلى مناسبات لتمجيد الحكام الجدد وإحياء ذكرى وصولهم إلى سدّة الحكم. فنسي الناس كيف يحتفلون بأفراحهم وباتوا كما لو أنهم ليسوا بحاجة إلى السعادة أبداً. ولكن بمقدوره الآن أن يحدد بوضوح تام من الذاكرة أصوات الأشخاص ومسيرة الأماكن والأشياء المعربدة في جنبات الساحة ومتى غيّرت أماكنها لآخر مرة. القلابات والأراجيح ودرايا النيشان. مظلات عربات البيع زاهية الألوان. فرقة الطبول والزمور، السحرة، البصارات

الغجريات، مرقصو السعادين، لاعبو اليانصيب والكشاتبين وزهر النرد وعلب الأرقام الدوارة. خيمة كراكوز وعواظ، صندوق الدنيا، وأخيراً مكانه هو وهو يسعى ليشاهد كل هذه الألعاب والاستعراضات ويجربها معاً، ويكلفه عبور تلك الساحة الصغيرة جهداً يكفي عبور قارة بأسرها.

وهو يستعيد طعم تلك الأزمنة البعيدة في خياله، تذكر هيلانة مرة أخرى في لحظ قصيرة من الماضي حين أمسكته بيده وطافت به وسط الزحام مخترقة باندفاعها المرح صورة الفوضى الكونية وهي توزع ضحكتها الشهيرة في الأنحاء وتسحب وراءها تنهدات الرجال المهتاجة. وفي لحظة أوقفت كل هذا وهي تتراقص وتتلوى من الألم لأن لحمها الطري في أعلى الفخذين بدأ يلتهب من الاحتكاك والتعرق. مضت إلى زاوية جانبية من جدار التكية ودعته ليسد بجسده فراغ الزاوية لكي تصبح غير مرئية، ثم رفعت فستانها إلى بطنها وبحركة رشيقة ملصت سروالها الداخلي عن ردفيها فانزلق بصورة تملأ العين اهتياجاً، وظهرت الخطوط الحمر التي حززها على فخذيها. سروال قطني أبيض معقد فيه تطريزات وطيات كثيرة وفتحاته كلها مغلقة بالمطاط. دسته في جيب أدهم ثم نهضت وقالت له بإحساس ناعم بالراحة:

ـ إنه شديد الحرارة ويؤلمني. في الاحتفال يجب أن نكون مرتاحين.

خرجت من البلدة خادمة وعادت إليها امرأة دنيوية تعرف الكثير عن أحوال العالم. استقبلته بفرحٍ طاغٍ لا تحس به إلا نادراً. أجلسته على مقعدها الخاص، ثم جلستْ أمامه وأخذ كل منهما يحدق في عيني الآخر زمناً طويلاً أحرجهما عادا بعده منفصلين.

لم تعد صورة أحدهما تتفق مع الصورة التي له في مخيلة الآخر، وبدا أقل منها تأثراً بالشيخوخة. كانت ترتدي فستاناً طويلاً من الأطلس الأصفر الصارخ وعلى الصدر وردة بنفسجية من كتان. وكانت تحتذي خفاً بيتياً رقيقاً عليه رسمة لرأس نمر في حالة هجوم. بينما لفّت شعرها فوق رأسها في تسريحة تقليدية وضمته بشبكة زينة منجمة بلآلئ بيض. وكيفما تحركت كانت تصدر من أساورها وعقدها الذي في طبقات وقرطيها المتدليين في شباشيل خشخشة كخشخشة أجراس قطيع الماعز. في حين لم تفلح الحمرة والمساحيق التي مرغت بها وجهها إلا في أن تجعله طيفاً شمعياً قادماً من الماضي. ولم يكن أدهم أفندي يعلم مقدار العطف الذي شعر به نحوها عندما لاحظ وهي تنقل حزمة عظامها في أرجاء الحجرة أنها عرجاء وأنها تخطو بساقها اليمنى كما لو أنها تهوي في حفرة ضيقة.

بدأت الحديث من لا شيء، من خلف غلالة دخان تبغها الأميركي الذي تمتصه عبر مبسم عاجي طويل مزخرف. ضجت بحركات فخمة متأنقة وبيدها مروحة يدوية عليها راقصوا وراقصات فلامنكو، وروت له ما بدا أنه حكايتها الدائمة عن عالم لم يعد موجوداً إلا في ذاكرتها. عالم تلك الحقبة التي كانت تضج فيها شباباً ومجوناً رائعاً، حيث عملت وتنقلت خلالها بين فنادق المرافئ وحاناتها على طول الساحل الشرقي للمتوسط. من بيروت إلى الاسكندرية، ومن لارنكا إلى استنابول ومن دمشق إلى القاهرة. عملت مع رفيقات روسيات وإيطاليات وفرنسيات، جذبهن الشرق وسحر الأسطورة الشرقية والرجل الشرقي الخيالي بعباءته التقليدية وطلعته الأميرية الملوحة بالشمس وملح الصحراء. وعندما خاب أملهن انغمسن في المستنقع وواصلن العمل لا

لشيء إلا ليعشن قدرهن. بعضهن شرهات للمال بعدما شردتهن الحرب، وبعضهن شهوانيات علمتهن تجاربهن أن الحب نادر الوقوع في أي زمان أو مكان، فأطلقن العنان لنزواتهن دون قيد أو وجل. انضمت هيلانة إلى فريق الصنف الأول وتنقلت مع عاملاته بين الفنادق والحانات الصاخبة وصالونات المتع الراقية، والمباغي السرية التي تقودها مدامات مشهورات من أصول وجنسيات مختلفة، بصحبة ضباط صغار ورجال أعمال أثرياء، وبكاوات من عائلات إقطاعية وسياسيين يعشقون رشف الشراب عن سيقان النساء والمشاركة في الحفلات التنكرية. صالونات فخمة، أسرّة وثيرة، لوحات لمشاهير الفنانين، ثريات كريستالية، سجاد تغوص داخل وبره الأقدام، حمامات لها مرايا. كان ذلك كله ملكاً لها لليلة واحدة، وكان ذلك ممتعاً.

ـ تلك الأيام كانت مسراتها بلا حدود. فيها اللذة والفوضى والنعومة. وكان العشاق يعششون داخل ثيابي كخنافس القطن فلا أعرف كيف أستأصلهم.

بقي أدهم أفندي صامتاً معظم الوقت، فما كانت تند عنه سوى بعض الابتسامات التي يطلقها نحو محدثته على سبيل المشاركة الوجدانية، وبعض التنهدات البعيدة التي كانت خير ما يفعله أمام حكايات المرأة التي ترويها كأنما أصابتها حمى لغرض وحيد هو أن ترقى بماضيها إلى مستوى توقعاته. كان باب حجرة نومها مشقوقاً قليلاً، ظلت تأتي منه أصوات غابرة وروائح خفيفة لحانات وبارات موبوءة مختلطة بصوتها الخرافي، وكلما تقدم الليل كان يشعر بيقظة أشد وبأن أمتعة الحجرة وأغراضها تتراقص طرباً بينما يصدر السرير العريض صريراً شجياً لجسدين يتحابان.

كان يجهل إلى أي حد يمكن أن تكون صادقة في ما ترويه، ليس لأنها قد تجد الكذب أسهل أحياناً وأكثر تهذيباً وحسب، إنما لأن ذاكرتها المزدحمة بالأشخاص والأحداث قد تفقدها القدرة على التمييز بين الواقع والخيال فما تعلم بعد متى ينتهي أحدهما وأين يبدأ الثاني. ولا شك أنها لمحت ذلك في عينيه، ولكي تزيل من رأسه أي شك قد يراوده تجاه ما ترويه، دخلت إلى الحجرة وعادت بصندوق من المخمل الأزرق الموشى بأشرطة مذهبة. فتحته بأصابع من حنين، وأخرجت منه بفوضى عقوداً لامعة وخواتم عليها أحرف أسماء باللاتينية وأنياب حيوانات تجلب الحظ وتماثيل صغيرة وزجاجات عطر مجسمة على هيئة نساء عاريات ونظارات شمسية من مختلف الألوان. ثم سحبت ألبوماً من الرسائل والصور الفوتوغرافية التي تظهرها في أماكن تاريخية وحدائق جميلة وشوارع مزدانة بالأضواء برفقة أصحاب وعشاق يبدو عليهم استمتاع البراءة أكثر من استمتاع المجون.

سرت هيلانة وهي تتبع التعابير الحالمة التي تركتها الرسائل والصور على وجه أدهم أفندي. وبدت أكثر تألقاً عندما فتحت أدراج الخزانة التي انبعثت منها للتو رائحة نظافة ميتة، وأخذت تخرج منها أمام عينيه حقائب وقبعات ومناديل مطرزة وأحذية لامعة وشلحات شفافة وسراويل رقيقة غريبة الطراز وجرابات معقدة ذات حمالات ومشدات للأرداف، حرصت على تجميعها وترتيبها فيما مضى من زمن، ثم كومتها في استراحة طارئة بعد أن عاركت معها مغامراتها العاطفية وأبلت معها بلاءً حسناً في معارك الجسد اللاهبة في الفراش. لم يقترب منها العث. وكانت تعرّف كل قطعة بأسماء الرجال الذين عاشرتهم بها. جاعلة من تلك البقايا الدرع الأخيرة لمواجهة النسيان كلما أوغلت في الزمن بعيداً

عنهم. ومع أنها كانت تحرص على أن يكون لكل قطعة ثياب ترتديها لمسة فلسفية ما، إلا أن معجبيها لم يتدخلوا بملابسها قط لأنهم كانوا يفضلونها دائماً عارية.

قالت له مهيأة بطبعها لتقبل الأمر الواقع:

ـ لكن الزمن لا يرحم في النهاية. لن نستطيع أن نملك سن الشباب إلى الأبد والتقدم في السن ليس بحاجة إلى مكان يختبئ فيه. مع هذا عندما يكف وجهي عن أن يكون وجهي فسأبتعد في الحال.

كان من الطبيعي أنها كلما تقدمت في السن كلما قلّ إعجاب الرجال بها. هذه هي مأساة هذه المهنة. لا تتصور صاحبتها أن أجمل اللحظات لها نهاية أيضاً. وعندما تصحو على ذلك في لحظة متأخرة من الزمن تكتشف أن الحياة ضاعت من بين يديها ضياعاً تاماً ولم يبقَ لها سوى ركام الذكريات والآثار المهنية التي تركتها عليها طريق العفن تلك. ففي السنوات الأخيرة تحولت إلى مومس أرصفة وبارات تعج بالمهربين والقوادين والجنود واللصوص. حانات سيئة الإضاءة تترنح بصخب الموسيقى والشراب والرقص. أضواء حمراء وزرقاء ووجوه متورمة بالمساحيق والمخدرات، وروائح نفاذة للعرق الأنثوي المتعب والعطور السيئة والفازلين الرخيص. وعلى هذا خرجت بقناعة بأنها إذا أرادت أن تعرف طباع شعب ما فإن السرير هو المكان الوحيد الصالح لذلك. فالعرب عاملوها كالخيل التي تباع أو تهدى. والأوروبيون عاملوها كمبولة مهجعية، والأتراك عاملوها كدمية رائعة تقلد أغلى المجوهرات لأدائها الممتاز. أما الأميركيون فقد علموها كيف يمكن أن تنام مع مائة رجل في اليوم الواحد ولا تكون عاهرة.

ولهذا أحبتهم بشكل خاص أكثر من غيرهم وبما لا يقاس. فهم لطفاء وجميلون كممثلي السينما ويعشقون سحر المخاطرة اليومية ورعبها. يحبون المرأة ويعرفون كيف يغمرونها بالذهب والقبلات. حتى جنودهم لشدة أناقتهم وأبهة ملابسهم العسكرية يظن المرء بأنهم لا يحاربون في ساحات المعارك إنما في الفنادق والصالونات الفخمة.

قبل نهاية الحرب بقليل خرجت مع قافلة من المومسات للترويح عن بعض جنود المارينز الأميركيين الذين رست فرقاطتهم في مرفأ بيروت. اختارها أضخم جندي من بين جنود الفرقاطة وكان برتبة سيرجنت. لم يكن هذا السيرجنت يؤمن بمقدمات الحب كما يبدو، فلم يأخذها إلى السينما أو المطعم. وفيما يبدو أيضاً كان السيرجنت من أولئك الرجال الذين يعانون أبدياً من قلة الصبر، فأخذها إلى الماخور مباشرة. تخشيبات ضيقة متلاصقة ذات طابقين مبنية من الخشب وسقوف من ألواح التوتياء المتموجة، تخترقها أزقة ترابية موحلة، وتطلق مستنقعاتها المتجمعة من مياه الغسيل والمراحيض الهوام والذباب والبرغش والروائح النتنة. يديرها قوادون محترفون ويحرسها رجال شرطة يعملون ساعات إضافية في خدمة القوادين.

لم يلحق أن ينقلها إلى السرير المعدني ذي الأغطية المتسخة الملأى بالفسفس والقمل. التقطها بيدي نسر واعتصرها داخل حناياه في هيجان إعصاري كأنه التقى فردوسه المفقود. لم يكن يقبلها تقبيلاً بل يلتهمها التهاماً. ثم إنه كان على قدر كبير من القوة مكنه من تثبيتها تحته كفراشة دون أن يخلع ثيابه ودون أن يتيح لها الفرصة لكي تخلع ثيابها هي. بدا لهيلانة أنه مرّ عليه

دهر لم يعاشر خلاله امرأة. فهذه طبيعة عمل الجنود القاسية، يقضون نصف حياتهم في عبور البحار والمحيطات وما إن يهبطوا إلى البر حتى يشعروا بأن الحياة أمامهم قصيرة ولا بد من تبديد القوة والمال بالعربدة والأساليب الأكثر إثارة التي تميزهم عن الآخرين.

أحست به يرتمي فوقها بكل تهور الروح وجنونها، وما ينفك يخبط فوقها بحركات ذات إيقاع ساحق. وفي فوضى جسديهما المتلاحمين ضغط بكل ثقله على فخذها المنحرفة قليلاً تحته وعيناه تسطعان بالرغبة المحمومة. حاولت أن تعدل وضع الفخذ وهي تتألم تحته لكنها فشلت. وما ظهر لها بوضوح خلال تلك الدقائق المدومة هو أن أي جهد لإنقاذ فخذها في خضم غلواء السيرجنت العاتية كان عديم الجدوى. صاحت بأعلى صوتها:

ـ فخذي. انتبه إنك تحطم فخذي.

وأعقبت ذلك بصيحة مدوية لامرأة تكاد تفارقها روحها أوشكت أن تقتلع التخشيبة من جذورها. لكن السيرجنت المقتدر أوّل صيحتها تأويلاً خاطئاً وواصل هجومه العاصف معتقداً أن المرأة لم تعد قادرة على احتمال عبء فحولته وهي تصرخ الآن بلغتها من لذة النشوة الغاشية. وما آن له أن ينتهي حتى شهدت هيلانة فخذها وهي تتحطم وتتمزق ألماً وتصدر عن عظامها قرقعة زبدية مميتة.

لم تكن حاقدة على السيرجنت، ذلك أنه زارها في المستشفى مع باقة ورد واعتذر بلباقة الجنتلمان عن تصرفه ذاك الناجم عن الحب. وعندما رأى اتساخ جبيرتها لف فخذها بعلم أميركي من

الحرير ذي نسالات يضعه جنود المارينز في جيوب ستراتهم للتلويح به أثناء وداعهم لعشيقاتهم على أرصفة الموانئ.

ظل العلم مع هيلانة كأغلى التذكارات واحتفظت به في صندوق خاص. وعندما فردته أمام عيني أدهم أفندي أطلقت ضحكة نقية صادرة من القلب مباشرة وقالت:

ـ أرأيت يا أدهم!!.. هؤلاء الأميركيون اللطفاء لا يستطيعون تقديم المتعة للآخرين دون تحطيم العظام. لكنني مع هذا أحبهم مهما فعلوا.

توقف عملها لأن أحداً لم يكن مستعداً لتحطيم ركبتيه بين ساقي امرأة عرجاء. وفي فترة العطالة تلك أنفقت أكثر مدخراتها من الدولارات الأميركية، وما بقي لديها سوى مجموعة من أوراق العملة الأجنبية التي ألغيت في بلدانها وبطل استخدامها. جمعتها في صندوق خاص آخر، وكانت تتسلى في أوقات ضجرها بنشر بعضها على حبال صغيرة وإلصاق بعضها الآخر على الجدران. بعد ذلك عادت إلى البلدة برفقتها عرجتها والعلم الأميركي ذي النسالات وبقايا ذكريات عن الشهوات المتوحشة وعفونة الأماكن، والتساؤل الدائم: ما الذي قذف بها إلى هذه البلدة من جديد لتبيع ماء الورد لهؤلاء المتوحشين؟

لم يبق شيء من تلك الدمية الفتية التي أرقت طفولته، ولم يعد ينبض فيها شيء من الماضي بعد أن أذبل الزمن كل مفاتنها. كانت تتحدث إليه وتعري نوازعها السرية أمامه كما لو أنها كانت تروي تاريخاً خارجاً عن سلطة الزمن. وكان يحس وهو يجمع خطواتها الناقصة في ذلك البيت الرخيص القابع في أحد الأزقة

الخلفية كما لو أنه شاهِد حي ما إن يولي ظهره لها حتى يختفي المكان والأشخاص والأحداث فلا يبقى شيء من هذا التاريخ. ومنذئذٍ قرر استخدام الطريقة الأفضل للتعامل معها وهي اعتبارها ذكرى للتاريخ، أو جزءاً من حكاية يمكن أن يكون لها أكثر من نهاية.

ففي ذلك العام تلقت من ابنتها الوحيدة طفلة بنت بها سفاحاً. رمتها في حجرها ورحلت إلى مكان مجهول. وفي ذلك العام أيضاً تزوجت من الكومندان المتقاعد نوفل التمروق. لقد شارك في حرب الدردنيل وحملة الجيش العثماني على قناة السويس، ثم هرب من هناك والتحق بقوات الثورة العربية ضد الأتراك، ودخل مع الأمير فيصل والجنرال اللنبي دمشق وسط المنتصرين. وكان أول علم للثورة العربية يرفع على سراي البلدة هو العلم الذي حمله بنفسه على رأس فرقة جنود وإلى جانبه مدفع. بعد رحيل الأتراك ومجيء الفرنسيين قام هؤلاء بتشكيل جيش جديد مستقل قوامه متطوعون جدد بالإضافة إلى بعض الأفراد المؤهلين من الجيش القديم. وكانت رتبة كومندان في ذلك الجيش لا تعادل في نظرهم أكثر من رتبة عريف في الجيش الحديث فمنحوها له. رفض الرتبة وعاد إلى بلدته كي يعيش بقية حياته على اجترار الذكريات.

لقد انتهت الحروب بالنسبة إليه وصار مجرداً من كل معطياته الأسطورية وفاعليته العسكرية التي كانت له في أزمان غابرة. وكل ما جمعه من مجد تركه في تلك اللحظة في ساحات القتال البعيدة تحت الدخان والرمال والمدافع المحطمة وعتاد الجند المتروك بفوضى والجثث المنكبة أفواهها في الطين. عاش سنوات

وهو يروي لكل من يود أن يصغي إليه قصص الحرب والثورة المريبة والاشتباكات الحربية التي خاضها. وعندما لم يعد يجد أحداً راغباً في الإصغاء إليه اتجه إلى تجميع وثائق التاريخ بإصرار وحرص نملة. لقد تملكته دائماً رغبة جامحة في أن يجعل من حياته شيئاً ذا أهمية بالغة، فما وجد ذلك داخل حياة المنتحرين التي يعيشها إلا في اقتناء تذكارات وأضابير التاريخ تلك التي وسمته بميسم المأساة الدائمة. فقد امتلك بالإضافة إلى ذاكرته أرشيفاً وثائقياً ندر وجوده عند أحد في أيامه. وكان هذا عبارة عن بذلات ورتب عسكرية وأعلام دول ورايات جيوش وأوسمة ونياشين حرب وصحف وخرائط طبوغرافية ومناظير مكبرة وثلاثة مسدسات ورشاش مورزر. بالإضافة إلى مجموعة من المراسلات العسكرية عن الخطط الحربية التي قادها، وألبوم صور فوتوغرافية لشخصيات بارزة في عصرها وصور شخصية له مع الكولونيل الإنكليزي توماس إدوارد لورنس صديق العرب وموجه ثورتهم. أدوات وتذكارات حرص الكومندان المتقاعد على نقلها معه في صناديق خاصة لا لأنها أدوات حرب بل لأنها باتت تشكل كل ذاكرته.

كان من رواد المقهى الذي يرتاده أدهم أفندي قبل المقهى العالي. وكان يلعب معه الدامه والدومينو والشطرنج ويعتبره من أقرب الأصدقاء إليه. كان يشكو إليه معاناته بين أصدقاء المقهى بعد أن أخذ يصدمه تجاهلهم وجفاؤهم لأن كومنداناً متقاعداً يرتدي ثياباً مدنية لا يساوي في نظرهم شيئاً. فقد كان من العسير عليه تغيير حياته الماضية. حياة رجل الحرب الذي تشكل على تلك الطريقة الصماء متجرجراً بين البيت والمقهى، وأينما حل يتسبب بحدوث الفوضى ومنطقه يصطدم بمنطق الآخرين. وما كان يعذبه شيء

قط بقدر ما يعذبه في تلك الأيام قصور الآخرين عن فهم قصص الثورة التي يرويها لهم حيث تكمن قوته، بعدما تكشفت لهم حقائقها المريعة وخفت حماستها لها.

عندما أعلن زواجه من هيلانة اكتفى أهل البلدة بالزعم بأن العريسين قد خرفا، وحضر حفلة الزفاف كل من كان قادراً على الفرح. بينما اعتبر سكان المقهى هذا الزواج عشية يوم الاستقلال انتصاراً للحماقة وخالياً من روح المسؤولية. فلم يحضره منهم سوى أدهم أفندي بوست الذي شارك بكل مجريات الزفاف وحرص على التواجد الدائم إلى جوار العريس وراح يستقبل المهنئين ويتقبل تهانيهم كصديق قديم. وفي مساء اليوم نفسه والعرس قائم تلقى أصدقاء المقهى رسالة انتقامية من نوفل التمروق قرأها نادل المقهى بصوت يسمعه الجميع، دون أن ترهقه قراءتها لأنها كانت مكونة من كلمات قليلة يقول فيها: «أنا الآن سعيد بهيلانة، لكن سعادتي هذه أقل بكثير من سعادتي وأنا أتصور الغضب الذي يعصف بكم وأنتم تتخيلون كيف سأقضي ليلتي في أحضان عاهرة».

بعد أربعة أعوام من ذلك مات نوفل التمروق على كرسي كساح ذي عجلتين. انزلقت به فوق السلم الحجري من الطابق العلوي إلى الأسفل. ولكن ليس قبل أن يجمع كل الأرشيف والوثائق وتذكارات التاريخ التي بحوزته ويرسلها إلى المتحف الوطني في العاصمة. وضعها داخل صندوق ضخم يشبه التابوت، وحمّل الصندوق على عربة يجرها بغل. ثم سار وراءها على كرسي الكساح تدفعها هيلانة باتجاه محطة السيارات، ولحق بالموكب حشد كبير من الناس الذين خرجوا لوداع الصندوق كما لو أنهم يشاركون في جنّاز عظيم.

9

منذ دخولها الحجرة وطّد نفسه على توقع ما ليس مألوفاً من سلوكها. كانت هادئة هدوءاً غريباً يعلوها سحر كئيب. كان أدهم أفندي يحدثها عن آخر ابتكاراته في عالم البريد حين أشاع بين العشاق طريقة مضمونة لتبادل الأفكار والعواطف خارج رقابة ذويهم بكتابة رسائل بالحبر السري الذي يستخدمه عادة الجواسيس والمتآمرون على الدول. وقد اكتشف رسالة من هذا النوع بين رسائله المخزنة التي أكلها الجراد. وكان أمراً مبهماً بالنسبة له عندما وجد رتيبة فاقدة الحماسة تجاه هذا منطوية على نفسها ونهباً لأفكار سلبية غير معلنة لكنها ملحوظة.

والحق كانت رتيبة في سبيلها لمصارحته بأمر لكنها لم تكن تعرف بعد من أي باب تدخل عليه وبماذا تبدأ معه القول. وذات لحظة حزمت أمرها سريعاً ودعته للجلوس معها في السرير. وبعد

أن جلسا متقابلين قالت له:

ـ أرجوك أصغِ إلي. سأخبرك بموضوع مهم. يبدو أن الشر بدأ يطرق بابي.

أثارت انتباهه نغمة الصوت الواجفة فتجمد عقله مترقباً مفاجأتها بحذر شديد. لم تدعه يذهب بعيداً في مخاوفه. رفعت فستانها إلى مستوى الثديين وأمسكت يده الناعمة ووضعتها على البطن مباشرة، وقالت له:

ـ انظر أية بلوى أصابتني. أنا حامل. وإذا دققت جيداً فستحس بالجنين ينبض ويتحرك تحت الأصابع.

تدفق الدم في عروقه وشعر بنهاية التعذيب. مسح يده بحنو فوق البطن المكشوف على هوى النور. وقال بصوت أجوف خالٍ من التعبير:

ـ وما المشكلة في ذلك؟. إنه ابنك. وهذه فرصة تطمح إليها كل امرأة متزوجة.

شعرت رتيبة بشيء من الحب وسط الغضب، وارتجفت قليلاً حنقاً من سذاجته.

ـ لماذا ترتعدين هكذا؟ لم أرك بهذه الحالة قط.

أضاف ذلك، فأجابت رتيبة بمزاج الحمل الكثيف:

ـ ليس الأمر بهذه البساطة. ولكن إذا فتحت عقلك وقلبك

فسوف تتفهم الأمر. لن أكون بخير مع هذا الجنين. إنني أشعر تجاهه بالعار وكأنه ابن زنى. إنه ابن لشخص بغيض لا أكن له غير كل مشاعر الكراهية والاحتقار.

كل ظنونه عن أفكارها وهواجسها الخفية عادت وأصبحت ملتبسة عليه حين بلغ بها الأمر إلى أن تكره جنينها، وخالطه شعور بأنها تبيت نية لأمر ما. سألها:

ـ بماذا تفكرين؟

بعد لحظة صمت أجابت:

ـ لا توجد طريقة سهلة لقول ما أريد قوله، لكنني سأقول لك بكل بساطة، إنني أريد أن أتخلص من هذا الجنين وأعود كما كنت سابقاً. أنت لا تستطيع أن تقدر كم سيكون وضعي مهيناً به.

انتفض أدهم أفندي واقفاً وصاح متميزاً من الغيظ الذي لا يسمح له بالظهور إلا نادراً:

ـ هذا جنون. وأنا لن أصغي لأفكارك الجنونية هذه.

ارتفعت من حنجرتها صيحة حنق وقالت:

ـ إنني أحمل من الألم أكثر مما تتصور. ولكنني لا أريد لبطني هذا أن ينجب أبناءً شريرين. أبوه لا يقيم وزناً للشر لأن الشر ببساطة متأصل فيه وسينقله إلى أبنائه. أحدثك عن مصيبة وأنت تصم أذنيك عن سماعها.

قال لها بانشغال فلسفي:

ـ لا أطيق الأشرار في هذا العالم. ولكن لو تعين علينا قتل الأجنة التي لها آباء شريرون لانتهت البشرية منذ زمن بعيد.

ظل هادئاً لا يقلقه غضبها وهي تقنعه بأن التخلص من الجنين بأي وسيلة هو الحل الوحيد الذي يحررها من كابوس لا ينتهي. لا يمكنها التعايش معه ولن تسمح له بأن يسكنها. لسوف تدفنه في رحمها وتتركه هناك دون أن توقظه قط. غير أن هذا لم يكن كافياً لإقناعه، بالإضافة إلى أنه يجهل كيف بالإمكان أن يتم هذا الأمر بمساعدته. وبدا الأمر كما لو أنه من ألاعيب الخيال حينما رآها تهبط من السرير وتدور وسط الحجرة ويداها تعتصران بطنها، وبين حين وآخر ترسل شهقة عجز عميقة يرتج لها ثديان ممتلئان تحت الفستان المفتوح. وعندما واجهت مرآة الخزانة منعت نفسها بقوة من البكاء وقالت تخاطب ظلها:

ـ كأنني بحاجة إليه ليحطم إرادتي. أنا أستطيع أن أعتني بنفسي بمفردي. لست محتاجة لأحد.

أمسكت بطنها بأصابع فولاذية وأخذت تطويه وتدعكه في طيات لئيمة، ثم أخذت تسدد نحوه ضربات محكمة موجعة لكأن جسدها بات لا يعدو لها. وبدت أنها تدرك جيداً ما تفعله حينما عمدت إلى وسيلة أكثر جرأة وأخذت ترتمي بكل ثقلها على الأرض وتتقلب بجنون دون أي اكتراث بالنفس كما لو أنها صممت بحقد لا مثيل له أن تدمر نفسها بنفسها حتى الموت.

حاول أدهم أفندي أن يهدئها فجعل غضبها أسوأ. قال لها في خوف:

ـ لا داعي للذعر إلى هذ الحد. إنك تهلكين نفسك وليس بعيداً أن تموتي.

صاحت به وهي في ذروة حماستها التدميرية:

ـ لا يمكنني السكوت على هذا الوضع الشنيع. سأتخلص منه ولو كلفني ذلك حياتي. سأؤذي نفسي ليشعر بأنني أذيته.

تجمد وسط الحجرة وهو يرقبها وقد شلته عزيمتها الصادقة في تخريب نفسها بتلك الطريقة الانتحارية المتهورة. وقد سبق لها أن برهنت في واقعتين سابقتين براعة هائلة في تدمير الذات. حزّ ألمها قلبه وتمنى لو أنها تمزقه بأظفارها وأسنانها إذا وجدت في ذلك خلاصاً من شقائها. واتخذ ذلك كله طابعاً جنونياً عندما غدت لعنة حماقتها لا مفر منها. فبعد أن أنهكت قواها أسرعت إليه ورقدت على الأرض منبطحة على بطنها وطلبت منه أمراً لا مثيل له: أن يقف على ظهرها ويضغط بكل ثقل جسده على كليتيها لكي يخرج الجنين منها ميتاً بسرعة وضمانة أكبر. قالت له بلهجة غارقة في لجة اللاشعور:

ـ هل عليّ أن أركع متوسلة مساعدتك؟ أنت لا تحبني ولا تهتم بما يخصني.

قال وهو يحس بالشفقة والمقت في آن معاً:

ـ بلى أحبك. لكن ليس على طريقتك هذه لأنها غير إنسانية.

إنك تعنين لي أكثر بكثير مما تعنين لنفسك.

قالت له:

ـ ولكنه ليس ابنك.

أجاب:

ـ وما الفرق ابن من يكون ما دامت الحياة واحدة بالنسبة للجميع؟.

نهضت باندفاعة نمرة جريحة وصاحت بصوت متوحش:

ـ لماذا يحدث لي هذا؟ لماذا لا تساعدني؟! إنني أحذرك: إذا لم تفعل ما أقوله لك فسأجرفه بملقط الفحم.

كانت نظرة عينيها متحدية ومتهيبة وتحمل كل عزم القول. أجفلته الفكرة وهو على يقين أنها على وشك تنفيذها. خفّت مقاومته وفي لحظة ضعف باردة وجد نفسه منقاداً لتهديدها. ففي ظل إرادتها الاستبدادية ما كانت تبيح له سوى تحقيق القدر الأدنى من إرادته. وكل ما حدث بعد ذلك حدث في جو هذياني خانق كما لو أنه يحدث في أبعاد ضبابية.

ارتقى ظهرها بقدمين اسمنتيتين وتمشى فوقه جيئة وذهاباً حسب تعليماتها وهي تستحثه:

ـ أشد. أشد. اضغط بقوة أكثر. تابع هنا. استمر حتى ترى دماً.

فهذا على ما يبدو ما كانت بحاجة إليه كي تفرغ قلقها وعذابها في موجة من الدماء النازفة. بعد دقيقة أراد أن يترجل وهو يحس بأنه غير قادر على احتمال المزيد من مرارة وقسوة قتل الجنين. لكنها منعته من النزول حتى يرى النزف. لم يكن الأمر سهلاً لكن عنادها كان صلباً لا يلين. تابع المشي ذارعاً ظهرها بثقل قدميه وهي تهتز تحته هزاً شديداً وتهرق الروح في أنفاس متقطعة تتردد أصداؤها الخرساء داخل عظامها. ثم بعد زمن انتهت العملية بشكل سيئ مثلما كانت تأمل تماماً. نزفت دماء دافئة تدفقت منها في قطرات فجائية فبقعت سروالها الأبيض في عدة لطخات كورود حمر متفتحه لها عبق عشب نهري. عندما رآها دامية أدرك الخطأ الذي شاركها فيه فأسرع ووضع يده مكان الجرح بقصد ساذج يرمي إلى إيقاف النزف. أما تركه ليده هناك زمناً طويلاً دون أي احساس غريزي، فكان نتيجة بلهاء ورغبة حمقاء في أن يظل هكذا مأخوذاً بجنونها العذب حتى النهاية.

ـ لا تتحركي حتى لا يشتد النزف.

أبدت ارتياحاً عظيماً لهذا الإنجاز الرائع وهي تنظر إلى نفسها من خارجها، وجسمها المتعب يهتز برعشة برد خفيفة، وقالت له:

ـ لا أستطيع أن أتحرك فأنا ميتة. أشعر برأسي قفصاً تهرب منه الطيور. لا أفهم لماذا يجب أن أظل حية وجسمي ميت؟.

قال لها بنبرة غليظة:

ـ أرجوك أن تصمتي.

استعادت هدوءها بنفس البساطة التي أججت بها غضبها وقالت:

ـ لم تحدثني بهذه الطريقة من قبل. هل بتُّ أضجرك؟

أجابها برقّة:

ـ لا. لكنك أجبرتني على القيام بعمل شاق لا يغتفر. لا أصدق أن ذلك كله كان حقيقياً.

قالت:

ـ أنت لست مستعداً لإدراك حجم الكارثة. لم يكن أمامي خيار آخر. ألا تعرف أنني من برج سيئ؟.

قال بحنق:

ـ لا تخلطي الأمور، أحدثك عن أمر وتحدثينني عن أمر آخر.

قالت في تألق طبيعي:

ـ سأنام الليلة هنا لأشعر بقربك. أنا محتاجة إليك. دع يدك مكانها، أشعر كأن النزف سيعود.

بدايات شتائية نزقة. فجأة هبت ريح نشطة حركت الفضاء في جلبة جرسية ساحبة معها الدفعات الأولى للغيوم من جهة الغرب. ارتفعت بتثاقل متخم ثم ما لبثت أن تفتحت واتسعت في مدّ انفجاري هائل حجب ضوء الشمس وجمع كامل أبعاد السماء فوقه. ثم جاءت بعد فترة أقوى مما كانت عليه حاملة معها خيوطاً غير مرئية من المطر ونباتات شائكة وأوراق شجر جافة، همّت فوق أدهم أفندي في وابل متناثر كثيف، وأخذت تطرز فوقه رداءً آخر. انطبعت فوق معطفه وقبعته وعششت في شعره راسمة

فوقه أشكالاً مبهمة كتلك الرسوم التي يوقعها عادة على جسد رتيبة بأختامه والمشوهة بنياته. وكانت الأوراق الأكثر هشاشة تغادره في وداع هامس يتناغم مع الوقع الهامس لحذاءيه وهما يلامسان تراب الأرض بخفة.

اقتربت صفوف أشجار عارية وبيوت طينية مبعثرة معزولة ثم اختفت. وبدأت دروب متعرجة ثم انتهت، ولم يبق في أجواء الطبيعة سوى قوس قزح نشر سحر ألوانه فوق المرتفعات الجنوبية لدقائق ثم انطفأ.

مضى أسبوع قاحل لم يرَ خلاله رتيبة. كان يتطلع شوقاً لمجيئها ليطمئن عليها ويقول لها إن ما حدث لم يخلف في قلبه أي ذكرى سيئة. في تلك الليلة المشؤومة التي شاركها فيها قتل جنينها، سهر إلى جوارها حتى الصباح وهو يشعر بأنه قاتل مدان، وأن ما قام به كان من أشد الأمور التي ارتكبها في حياته حماقة. وطوال تلك الساعات ظلت تحدثه بصوت دافئ وهي تعيد من الذاكرة آثار الماضي القريب منذ تلك الساعة التي جاءت فيها إليه بمخطط مرسوم، إلى هذه الساعة التي يتكومان فيها داخل جدران جوفاء وكل منهما يحس بأنه الأقرب إليه أكثر من أي شخص في العالم. تذكرت كل شيء وكل لحظة وكل مكان في البيت بذكرى معينة.

تلك الأماسي الرائعة بطقوس لهوها الجريء وهدوئها الرهيب ولذائذها الخفية وما تراكم فيها من أشتات التفاصيل، بدت لها حلماً هشاً ما إن تتنفس حتى يتلاشى. وبين حين وآخر كان يغلبها النعاس ثم لا تنفك تستفيق منه فزعة وتتمسك بأدهم أفندي

بشدة ينتابها شعور بأنه تركها وغادر الغرفة. نامت بين ذراعيه وهي أقل اضطراباً بعد أن كافحت هواجسها حتى النهاية. وما بقي على أدهم أفندي إلا أن يضمها إلى صدره ويستنشق رائحة ثيابها ودفء جسدها وأن يقترب من أنفها الرقيق بين فترة وأخرى بحثاً عن أنفاسها المرتعشة ليتأكد أنها لا تزال حية.

لم يكن يعلم أنه يحبها بهذا القدر. كانت أجمل شيء مرّ في حياته. لها أفكار جريئة وقلب طائش ونفس ملول، وكان مستعداً دائماً لأن يسلو عنها حتى لو اضطر إلى الرقص حولها على الطريقة الأفريقية وبيده رمح. كان يشم فيها رائحة موسيقى تنبعث من شخصها كله، نصفها هادئ ناعم كلمسة المخمل، كأنما رسمه شاعر، ونصفها الآخر صاخب متوحش وغريب الأطوار، كأنما صاغه ساحر مدمر. ومع ذلك كان النصفان ينسجمان ويشكلان وحدة ملأى بالألغاز ومثيرة إلى حد الانفعال. وعندما قادته إلى عالمها هذا كما لو أن عليهما ألا يلتقيا في هذا العالم إلا على هذا النحو فإنما كانت تدرك جيداً أنه الكائن الوحيد الذي يمكن أن يقاسمها مثل هذه الحماقات.

اقترب من مرتفع يطل على مخيم غجر أنهى سكانه استعدادهم للرحيل. وقف يرقب رحيلهم بصمت. انطلقت قافلتهم بخيامها وعددها ودوابها وكلابها وغدا كل شيء ممحواً في الواقع. لم يعد هناك أثر لمخيم سوى تلك المرأة التي لحقت بالقافلة على رأسها صرة، وتسير شفافة بلا وزن لدرجة تظنها من الأوراق. حدق مجدداً في البعيد على هوى الطريق التي يسلك، فلم ير سوى فراغات شتوية سحيقة وأرض باردة وممرات هزيلة النور وسماء مطلية من جميع الجوانب بلون العزلة الكئيب. بينما تكد

فوق البحر العاتم التماعات بروق ترسم في الأفق إشارة ما، كلمة سر ما، ثم تنطفئ.

عاد أدراجه باتجاه البلدة دون أي صوت سوى صوت وقع المطر على ركام الأرض. وعند تقاطع طريقه بأحد الدروب الموصلة إلى البلدة استرعى انتباهه صوت مسير عربة مميز بدا له لأول وهلة وكأنه سمعه من قبل. ولم يمض وقت طويل حتى مرت العربة واجتازته. لقد عرفها. كانت عربة الحداد الأرمني دكران الذي يجوب البلدة وقراها لتبييض الأواني النحاسية وإصلاح ما تخرب عند القرويين من أدوات منزلية ورتاجات وأقفال وعدد معدنية متخلعة. كان دخوله إلى أي مكان يحدث ضجيجاً صحياً منعشاً بأغانيه الأرمنية الفاسقة وأمازيحه البريئة مع الأرامل وزوجات الجنود الغائبين. عربة مفككة الهيكل مقضقضة الخشب، يجرها حصان ضامر هرم. وتتدحرج فوق الأرض بدولابين عنكوبتيين مائلين إلى الداخل بينما يصدر محورها المتآكل صريراً خانقاً، وتئن تحت حمولتها من الأدوات والمعادن والطناجر والأوعية المنسقة، والتي ترن بدورها رنيناً أجوف كالأجراس المكتومة.

كان الأرمني يجلس في مقدمة العربة ثملاً شائخاً أكثر من أي وقت مضى، منحنياً نحو أحشائه ورأسه يترنح فوق صدره مع كل حركة اهتزازية للدولابين في تعثرهما بالحجارة وانغرازهما في الطين. وغير بعيد عنه، خلفه تماماً، فوق كومة من المتاع والأدوات البالية كانت تتمدد جثة لشخص عرفه أدهم أفندي دون صعوبة. إنه ابراهيم زدابه مشوه الحرب الذي يصر بعناد على البقاء. لم يكن غريباً أن يلتقيه في أي مكان مخموراً مرمياً في الطرقات أو محمولاً كما هو الآن على عربة عابرة بجثته

المطحونة وذراعيه الاصطناعيتين اللتين غادرتا جسده إلى حافة العربة الخلفية وتدلتا معلقتين بخيوطهما فوق الأرض.

توقف عن التفكير. مسح عن وجهه بعض قطرات الماء النازلة عن حواف قبعته، ثم ألقى نظرة أخيرة على عربة دكران قبل أن تغيب. فجأة سمع صوتاً شبيهاً بطبول الموت الخفية ينبعث من باطن الأشياء، وما تصورت مخيلته ما يمكن أن يعبر عن أن الحياة تمضي وتضيع في العدم أكثر من حطام هذه القافلة الصامتة التي تتدحرج هابطة في مدى قفر من المطر والرحيل، وفوق قشرة من الكلس الضارب للسواد، في الفترة الأخيرة التي يبدأ فيها آخر ضوء شتائي بالانحسار.

في تلك الليلة رأى حلماً مزعجاً. رأى جده لأمه يجلس على هيكل كرسي بلا قش ويلعب الدامه مع صديق له مجهول، وقد بدا أنهما خارجان لتوهما من جوف الأرض. وكان وراءهما كوخ من الصفيح متهدم السقف مائل الزوايا تمتد خلفه صحراء مرملة موحشة تظلم القلب بلا حدود. وفهم أن هذين الرفيقين درجا على عادة الخروج من قبريهما كل عصر ليقتلا بعض ساعات الموت السحيقة بلعب الدامه، ثم العودة إليهما عند الغروب. كان الجد يرتدي معطفاً صدئاً من النوع القديم ويحرك بيادقه بأصابع عظمية جافة حافظت على تماسكها خيوط العنكبوت. بينما تساقطت فوق الأكمام أعشاش موحلة من شبكة عنكبوتية هائلة فجللت الجمجمة ذات الخصل القليلة الغبراء، لكنها سمحت برؤية عظام الوجه والفكين التي ترممها رقع خضراء من الجلد المتعفن. قال له أدهم أفندي: «أنا حفيدك». ودون أن ينظر إليه الجد تابع نقل الحجر وقال بصوت أجوف بعيد: «لا داعي لأن

تكمل فأنا أعرف ما تريد أن تقول. جئت تريد الرحيل معي، لكن انتظر حتى يغرب الوقت. نحن هنا لا نعرف الساعة والشمال من الجنوب. وننتظر أن يتكلم الآخرون قبلنا لنبدأ الكلام». لم يكن يرى شمساً، لكن الضياء القليل الذي يرشح من سقف السماء الدخاني أظهر له درباً طويلة لا نهاية لها وبلا حواف، ينزلق فوقها الزمن كأوراق خريفية تنقلها ريح مرئية. قاده جده عبرها في صمت حتى وصلا إلى مرتفع ترابي نبش حديثاً، تتشقق جدرانه وتلتئم ويتبدل لون تربته أمام الأعين. وعند وصولهما رأى أدهم أفندي جده يتسلق التلة بجسد مدرب ثم يرفع قرصاً مدوراً كغطاء البراميل ويدخل في الحفرة إلى منتصفه. ومن هناك خاطبه بعبارات متقطعه مهشمة تنسجم مع عينيه الميتتين اللتين لهما لون المعدن الغامق. فهم منها أخيراً أنه يعرفه على بيته. وفي تلك اللحظة التي تردد فيها بالدخول معه إلى الحفرة ليرى محتوياتها، أحس وراءه بدنو ناقة جرباء مبقعة بالقطران وإحدى قوائمها أطول وأضخم من الأخريات. أنهكها لحاقهما على الدرب المستحيلة الضائعة، وعندما أدركته بقوة هجمة فتحت شدقاً مظلماً مزبداً بالرغوة. ثم لم ير شيئاً بعد ذلك.

تذكر أدهم أفندي الحلم في البداية بتوجس وكسل على اعتبار أن ما رآه ليس أكثر من تهيؤات شاذة. لكنه وقد تعمق في استكشاف إشاراته المقلقة سرعان ما استيقظ لديه ذعر مفاجئ من موت مفترض ينتظره. لم يكن يؤمن بمدلولات الأحلام إلا نادراً. غير أن هذا الحلم كان مقروءاً وتحذيره واضحاً، فلا تفسير آخر لظهور الجد المنسي منذ زمن بعيد على تلك الصورة إلا انتظاره له في عالم الأموات، كما لم ير في شدق الناقة المزبد الذي طارده إلا الموت نفسه. لم يشك في تفسيره هذا، وسيطرت عليه فكرة

الموت بإخلاص كفكرة وجوده إلى درجة بات يحس فيها بالسعادة كلما مرت خمس دقائق لا يموت فيها. وطوال تلك الساعات الحبلى بالهلاك لم يستطع أن يعلل ذهنياً كيف أخذ يجد نفسه أنه مات ليرى صدى هذا الموت في ضباب عيني رتيبة الموحشتين. أحس كأنما قلبه ينتفخ ويترك مكانه وينبض في حلقه. كان يسمع الأصوات الواهية التي يفيض بها الليل العميق في الخارج، أمواج البحر المتلاطمة فوق الصخور، المطر وهو يسوط الزجاج، الريح والرعود التي تعصف في فراغات النوافذ وتهز الأبواب من مفاصلها، ثم لم يعد يسمع شيئاً. وبدأت تصادفه فترات تمتد لعدة دقائق يشعر فيها بأن كل صلة بينه وبين جسده قد انتهت.

في الغد استفاق من غفوة عابرة على حال أفضل. وكان شعوره المريح بأنه يستطيع أن يسمع جرعات الحياة وهي تتدفق في عروقه نبضاً قوياً، سبباً في تفكير طارئ استولى عليه تماماً بأن الموت ليس فناءً مطلقاً، إنما غدا أحد رموز الحياة الصامتة كموجة بحر أو عصفور طليق. ولم يكن خافياً عليه أن التفكير في رتيبة في تلك الساعات القاتلة جاءه بمزيد من النور إلى داخله وقاوم به ملاك الموت الذي كان ينتظره في فراغ الباب كما قدّر. توقف في حنين خاص عند آخر لقاء قبل تلك الليلة المشؤومة عندما رقصت فوق السرير رقصة شبيهة برقصة غجرية في قصور الملوك، ثم ارتمت عارية فوق الفراش وقادت أختامه بأصابعها باهتياج عاطفي عذب حتى لا ينسى أدق التفاصيل ولا يبقى مكان فارغ من جسدها لا يمر عليه بتواشيحه وتطريزاته الحية.

وما إن بدأت حيويته تتصاعد، حتى نهد إلى طاولته ليؤدي واجباً

لم يعد بوسعه إرجاؤه إلى وقت لاحق. تناول قلماً وورقة وبدأ يخط وصيته لما بعد الموت. وكانت تقضي بألا يرى أحد وجهه قبل الدفن، وأن تؤول جميع أمواله وأملاكه لرتيبة، وأن ترسل أختامه البريدية إلى المتحف الوطني لتحفظ هناك. وما كاد ينتهي من كتابة الوصية حتى جاءه فتى الديك الرومي حاملاً له النبأ الذي كان ينتظر وقوعه بين يوم وآخر: موت العجوز مزنة. تنهد أدهم أفندي بملء رئتيه وهو لا يستطيع أن يكتم انفراج شعوره الفاجع حيال ذلك الحلم اللعين بعد أن تكشفت دلائله في شخص آخر من أهل البلدة. إذ لم يعد هناك لغز، وذاك المجهول الذي كان يلعب مع جده الدامه تبين أنه ليس إلا العجوز مزنة.

أهل البلدة جميعاً كانوا بانتظار هذا الموت. ففي الفترة الأخيرة من حياتها أخذت تخطئ في حساب الزمن بعد أخطائها في تقدير الأبعاد. وباتت تقضي سحابة نهارها عازفة عن الطعام والشراب متفرغة لمعجزتها وهي تنشد أغاني الموتى الحزينة. واعتادت بعض النسوة أن يرينها تتكلم وحيدة وتفعل أشياء غريبة في الظلام وتنسى أحياناً أن تعود إلى بيتها ليلاً. فكن يبحثن عنها عن شعور بالواجب لا عن إيمان. وكثيراً ما كن يجدنها في الليل نائمة في أي مكان يغلبها فيه النعاس، فيوقظنها ويرشدنها إلى البيت. لقد باتت تظهر وتختفي في حياة البلدة مثل ظل هارب. لكنها ظلت تحمل قوة عنيفة لا تقهر لما وراء عالم الغيب. وبعد فترة أخذ بعض الرجال يعثرون عليها في أماكن خالية من البرية وهي في حالة من الإرهاق الشديد، فيعيدونها وهي تعاند للبقاء هناك بقوة لا تكفي إلا للقضاء على ما تبقى من أنفاسها الحية.

لا مثيل للمطر السماوي الذي هطل في تلك الليلة. تجمع منذ

الأزل وانسكب على الأرض في سيول جارفة، واصطخب الكون من جهاته الأربع بأعاصير معربدة ملفعة بالبروق والرعود والصواعق. ومع انبعاث أول ضوء لنهار شتائي جديد اهتزت البلدة بضوضاء فظة تتردد أصداؤها بين الناس وجدران البيوت. خرجوا جميعاً في انفجار محموم. والبلدة التي كانت هاجعة سعت بيأس للنجاة من الخراب الذي سببه المطر الخرافي في الليل. فلقد تفسخت الجدران وهوت بعض السقوف إلى الداخل وتسلخت الحوارة وانفجرت سقوف المؤن وتقصف الشجر ونفقت بعض الحيوانات وتجمعت طافية أمام البوابات وحول أسيجة الدور. حيوانات حية من كل صنف نجت من الطوفان، وأطفال يرتجفون تحت أقمصتهم المبللة، وحلل طبخ وقصعات عجين وأوان فخارية وسلال وأمتعة بائسة جرفتها السيول من أفنية الدور ولفظتها خارجاً، فامتلأت الأزقة بأصوات الرجال والنساء الباحثين عن أسمالهم وحيواناتهم المفقودة.

هدأ المطر وأصبحت الريح أقل هيجاناً وانقشعت بعض الغيوم الثقيلة. وبدأ الجو يصفو رويداً رويداً مما سمح للشمس الوانية بالظهور في بقع شحيحة باردة لا تنفك تظهر وتختفي. وجدوها طافية فوق بحيرة من السيول المتجمعة عند منحنى نهري تحت جسر بقنطرتين من الطريق العام، وحولها تطفو جذوع أشجار متقصفة وصناديق خشبية وهياكل عربات وأردية ونفايات وجثث حيوانات نافقة جرفتها السيول معها من القرى التي مرت بها واستقرت هناك. قطروها بالحبال وسحبوها إلى الضفة. وعندما خرجت الجثة من الماء لم يكن أحد من الرجال بحاجة لرؤية الوجه ليعرف أنه للعجوز مزنة. فوران خالص من رائحة الشوكولا العطرة انبعث من شخص الجثة كلها، وما لبثت أن تضوعت في

الهواء في سحابة سحرية خارقة من الألوان المرئية.

أدخلوها البلدة محمولة على الأكتاف. ورأى الناس على وجهها المبقع بالعزلة والمحفّر بمآسٍ تكاد تكون ناطقة ابتسامة لا تصدق. فما دفنوها إلا في اليوم التالي للتأكد أن ابتسامتها تلك ليست ابتسامة أحياء. وعند تحضيرها للدفن عُثر في جيوبها وطيات ثيابها الداخلية على رزم كثيرة من الرسائل والأوراق المطوية واللفافات المحزمة بالخيوط، بأعداد تفوق أعداد سكان البلدة البالغين كما قدر مأمور النفوس الذي حضر الجنازة. فما شك أحد بأن أشخاصاً غرباء عن البلدة جاؤوا وبعثوا معها رسائل أمنياتهم وطلبات التماسهم للعناية الإلهية أيضاً. لم تُفتح الرسائل ودُفنت معها.

10

ـ من المؤسف أننا لن نستطيع أن نتبادل كلمة وداع قبل أن نفترق.

قال أدهم أفندي ذلك بحزن يائس يضفي عليه منظر من يوشك على البكاء. أجابته رتيبة وقد تملكها هي أيضاً حزن شفيف وكآبة رقيقة:

ـ أعرف بماذا تشعر لأن لدي الشعور نفسه. لكنني سأنظر إليك إذا وقفت في الشرفة لوداعي.

بعد رحيلها غدا كل شيء فاسداً ومخرباً ومحزناً للغاية. الحجرات والشرفات والفناء والأشياء جميعاً لم تعد هي نفسها بعدما خسرت زائرتها الطاغية بكل ما كانت تنطوي عليه من سحر وجنون وشهوانية مسرفة. أصبحت باردة صامتة والجدران كئيبة والهواء

خالياً بتعاسة. وتكشفت البلدة وما فيها من بشر ومبانٍ وآلات لا عن وحشة المكان وحسب بل عن أكثر أمكنة الحياة إملالاً وإرهاقاً.

لقد هدأ البيت إلى ذلك الحد الذي بات يسمح له بمعرفة قدوم الغيوم من ظلالها وبرؤية الريح وهي تمر عبر الأبنية وتلطم نباتات الحديقة فتهز أغصانها بنزق، وبسماع صرير العربات التي تعبر الأزقة المتصدعة، وبالتنصت إلى زقزقة العصافير وهي تقيل إلى أعشاشها تحت أفاريز القرميد المتساقطة. ففي تلك الفترة اعتاد على فترات أكثر صمتاً يرافقه فيها صخب البحر في الأسفل، وصوت طقطقة الطاحونة بمحركها القديم المهترئ، وأزيز الزيزان داخل الخرائب. لم يعد يسمع في الظلمة وجلبتها أي صوت إلا صوت رتيبة. لكأن الأصوات الباقية كانت ترشح من سقوف خيالية بعيدة ولكأن ما مر معه في حياته قبلها من أيام وأحداث وأشخاص وكل ما فعله وما قاله لا يعدو أن يكون وهماً من فصول حلم بعيد بدأه كشبح، وينتهي معه إلى نفس الوضع. ثم أخذ ينسى الأماكن، التي يودع فيها أشياءه وأدواته الشخصية ذات الاستخدام اليومي، ويظل يبحث عنها حتى يأتي فتى الديك الرومي ويبين له أنها كانت بين يديه.

ـ هل أنت واثقة بأنك ستكونين سعيدة هناك؟!.

لقد انتصر خصبها على محاولة الإجهاض الدموية تلك ولم تتمكن من تجاوز محنتها، وانتهى بها الأمر إلى قبول الحمل مرغمة بعدما أصبح واقعاً راسخاً لا يمكن تخطّيه. انتفخ بطنها قليلاً وتخلى عن وجهها تشوش البراءة اللذيذ واستولى عليها قلق غريزي غامض. قالت لأدهم أفندي بلهجة من تدرب قلبها على

الألم واستسلمت نهائياً لقدرها المحتوم:

ـ لا أحد يثق بشيء هذه الأيام. قال لي بتنا نملك المال وعلينا أن نرحل لنملك النجاح والقوة هناك. سيجرني معه إلى الأسفل وإذا أرادني أن أكون عاهرة فسأكون. إذ لا شيء يهم في النهاية.

تذكرها وهو جالس إلى الطاولة يحدق في أختامه ويغالب ضعفه. وهو يتمشى في الشرفة منهكاً عنقه باتجاه بيتها يتأمله ضجراً مرهقاً. وهو على مائدة الطعام يتناول عشاءه وحيداً كمن يتناول أطعمة المآتم. وهو يطبق عينيه كي ينام وفي إنساني عينيه جسد كان يفيض عن مساحة السرير الواسع فما يجد إلى الرقاد سبيلاً. كان الوقت مناسباً فقط لتذكر الأيام الخوالي في هذا البيت الأخضر والنفوذ من خلال أشيائه وأصدائه إلى قلب الذكريات الحية وعبارات الكلام المبعثرة والضحكات الناعمة والهواجس المتلاشية والثياب المرمية بإهمال وفوضى على الأرض وقوائم السرير وكل حقائق الأختام واللذائذ الصغيرة التي مر وقتٌ حسبها فيه حقيقية وخالدة.

فتحت عينيها وقد هيمن عليها السحر من مشهد غريب مدهش. رأت جسدها النقي العاري ممدداً فوق الفراش ومغموراً بكامله ببراعم الزهور وتيجان الورود الرطبة. ذهلت بالرؤية الخارقة واعتقدت بأنها لا تزال في عالم النوم. رفعت رأسها قليلاً فوق الوسادة فطفا ثدياها فوق بحيرة الأزهار بينما ظلت عدة تويجات أرجوانية عالقة بحلمتيهما. فجأة رأت أيضاً أدهم أفندي يجلس إلى جوار السرير ويرمقها بابتسامة مشرقة، فغلبتها عاطفة رقيقة لاحتوائه بذراعيها:

ـ إنك هكذا تدفنني وأنا حية!!

تلك الورود وذاك الاستعراض الغنائي العذب ابتدعهما أدهم أفندي لعل جسدها بعد تلك المناوشة المشؤومة يجد الثياب اللائقة به. واحتراماً للحياة القادمة قرر أن تكون تلك الورود آخر أختامه عليها بعد أن تأكد حملها وأصبح الجنين حقيقة ملموسة. لم يعرف الهدوء الذهني في تلك الفترة. فكر أن أجمل الأحلام تنفصل عنه وأن كل خطوة خطاها في هذه الدار وكل نظرة داخل الضياء الأشهب وكل كلمة قالها وكل ختم يملكه، ليس له أي معنى بعد رحيلها وستظل تعذبه الذكريات ما بقي حياً وبقيت له ذاكرة. وأول ما فكر أن يصب نار غضبه على شيء أمام فتى الديك الرومي كان هذا البيت بعد أن آل إلى يقين راسخ بأنه بأفاريزه المتساقطة ونوافذه التالفة وزجاجه المحطم وجدرانه المتفسخة وحشائشه التي اختنقت بها المماشي وتفلعت تحت ضغطها بلاطات الأرض، لن يصلح بعد الآن لأكثر من قبر. تململ بضيق وقال له:

ـ هذا الأثاث الكثير يصعب الاعتناء به. ألا تلاحظ التعاسة التي صارت لهذه الحجرة؟. فمع ما فيها من أغراض تبدو كأنها مخيم مقفر.

ثم على حين غرة وهنت عزيمته واسترخى على الأريكة وتابع بصوت فقد كل حرارة الماضي:

ـ يا إلهي كم تخلفت عن الزمن! منذ عشرين عاماً وأنا أقول سأنظف هذا المكان ولم أفعل.

لأول مرة يشكو فيها أدهم أفندي من العيش في هذا البيت الذي

كان أفقه الوحيد وغايته النهائية، والذي صاغه ورتبه بأناة وحرص تجعلانه يصمد قروناً. لكن شكواه تلك جاءت متفقة مع ما كان فتى الديك الرومي يفكر به أيضاً بعدما فقد البيت شاغلته وسبب رحيلها انقطاعاً طارئاً لحياتهما التي كانا يحيانها بالثرثرة والحب والتوتر العارم. فكر بأنه مهما حاول أن يلقي برتيبة وراء حواجز النسيان فهناك يوجد دائماً ما يذكره بها. وجده شائخاً حزيناً ارتخت عظامه تحت الثياب ونمت تجاعيد وجهه في خطوط هادئة، وفارق اللمعان عينيه اللتين كانتا في زمن مضى فاتنتين وغارتا داخل كتل متراصة من الانتفاخات الشحمية القاتمة. تأمله وراقب وجهه الصامت فوجده يسترجع صوراً باهتة لأحداث مبهمة جرت في زمن أقصى لا تلحقه الذاكرة. وفي أقصر زمن مرت عليه تصاعدات رهيبة فيما بدا له أنه كان يعيد التفكير في كل شيء ويتعذب لكل شيء حيث يصبح التبصر في سريرته النازفة أمراً مؤلماً.

أخذت ختماً من أختامه ووضعته في جيب فستانها وقالت له:

ـ هذا يجعل لنا شيئاً خاصاً للذكرى. سأظل أحتفظ بذكرياتي عنك كبقية إمساكك بالأختام، وكلما رنت أجراس السرير تذكر أن روحي تحلق فوق هذا المكان.

وقف في الشرفة لوداعها. ظهرت برفقة زوجها عازف الكمان وهو يحمل حقيبتي سفر ضخمتين. لقد رفعت بصرها نحوه كما وعدت. في السابق حاول مراراً أن يحدد لون عينيها ففشل. كانتا بلون غابة زجاجية متقلبة تتدفق فيه الحياة بكل مراتبها مسرعة مترعة وتمر فيها الفصول الأربعة في لحظة واحدة نادرة. ملأت نظرتها قلبه باللياقة والراحة والرقة. نظر إليها ملياً دون أن يتخلى

عن سهومه فرأى على شفتيها المطبقتين على ابتسامة صغيرة كلمات لا تقولها لكنها تنبثق عنهما كوهم سمعي يصغي إليه الآن بكل تأكيد، وكأنه بحاجة لتقول إنها ممتنة له من أعماق مشاعرها بذلك العمل البهيج الذي كان يملأ خلاله أوراق جسدها بأختامه، وإن مشاركتها له كانت نوعاً من المشاركة في مغامرة معقدة ستظل تذكرها به وترسخ في داخله الاعتقاد بأنها هي بالذات، ولا امرأة في العالم غيرها، كلما كانت بعيدة كان تأثيرها أقوى. سوف تظل صورتها تبيح له أن يحلم بها فقط، يحاول القبض عليها فيتعذر عليه الإمساك بها. تماماً كالوهم، كالزمن، كالحياة في جريانها الهاذي.

ابتعدت كطيف ساطع تشع خطواتها لدى كل خطوة تخطوها إشعاعا مقفراً أصمّ، وباعثاً على الوحشة. وهناك عند نهاية الشارع انعطفت واختفت بلا أثر سوى الفراغ الثقيل الطاغي والألم الممل. وعادت ترهق أدهم أفندي فكرة الأشياء التي تنتهي كالوميض بالسرعة والألم.

ـ لماذا لم تسافر إلى أميركا؟ هل تنتظر موتي؟!

أجابه الفتى:

ـ لا. بل أنتظر أن أكبر قليلاً لأحصل على جواز السفر.

كان حدس أدهم أفندي صائباً وكان جواب الفتى كاذباً. فقبل فترة حصل على جواز سفر بحري لا يضع سن الثامنة عشرة شرطاً للحصول عليه. لكنه قرر عدم السفر إلا بعد أن يموت صديقه الكبير ويغادر هذه الحياة. كان كلما رآه غارقاً في واحدة

من تأملاته الكئيبة تائهاً في أفكاره يبدي حزناً من رؤيته كذلك، ويشق عليه أن يتركه وحيداً فيما تبقى له من عمر وكل ما هو حي في ذاته بات مسحوقاً وممزقاً. لقد تحولت ذكرياته مع رتيبة إلى جرثومة مهلكة، فأفزعه كم تقدمت به السن في أسابيع قليلة، وأحس بأنه بدأ ينقل إليه الشعور بأنه هو الآخر يطعن في السن منذ هذه اللحظة.

هذا الأمر بالذات هو ما يلح عليه بالمجيء إلى بيته والبقاء قريباً منه بكل السبل. يعدّ له طعامه، ويجمع له أشياءه وثيابه التي باتت تتبعثر بفوضى فوق أرض الغرف وأفاريز الشرفة والدرج. ثم حتى لا يمرا معاً بمراحل يائسة، كان يدعوه إلى العمل الحقيقي والوحيد المناسب لمثل هذه الأوقات وهو لعب الشطرنج. لقد علمه اللعبة وبرع الفتى بها ولم يعد من النادر أن يغلب أستاذه، خصوصاً في تلك الفترات التي كانت ترتبك فيها حواسه عند اقتراب موعد قدوم رتيبة.

لعبا معاً ساعات طويلة منصرفين بكليتيهما لخطط قتل شاه الخصم، مقطّعين بلا هوادة الخيوط الواهية التي تربطهما بالتفكير الصامت العقيم الذي يبدآن به جلستهما عادة. وكل نقلة يقومان بها، يقومان بها على إيقاع هواجس خفية فلا يلبث الصمت أن يتحول إلى رداء من الظل مثقل بأكوام من الأفكار المنبوذة وبحركات شبحية بطيئة تزيدها كثافته بالتدريج.

آخر مرة زار فيها الفتى مقصورة هيلانة، وهو أمام الكوة الضيقة يستشف لمعان جلد الفتاة المستحم بضوء الشموع النحاسي داخل المقصورة، أحس بيد العجوز تمتد إلى سرواله بملامسات

ناعمة متأنية وبحركات تجهد نفسها كي تبدو عفوية. ثم في محاولة ثانية وجدها تقبض على آلته الجنسية المتأهبة بانتصاب مفضوح، مستمتعة في سرها بلذة الإحساس بها، ومتهيجة بضغط الطاقة الخفية التي تسري فيها. استسلم لملاطفاتها الحانية دون أن يصرف نظره عن الفتاة ودون أن يلمح في نفسه أي رغبة في أن يكون في منجاة من كل شر، تاركاً معجزته المتجلية نهباً لشغب تلك الأصابع الرهيبة فلا يزيد عن أن يتنفس.

لم يكن صعباً أن يقدّر بأن هذه العجوز وجدت نفسها مع الزمن مدفوعة للتواجد قريباً من كوة المقصورة لا لمراقبة تعليماتها، إنما لاستراق السمع إلى تنهدات الفتية، والنظر إلى وجوههم المحمومة بلهب الشهوة، والإحساس باقتراباتهم المريبة من جدار المقصورة. ربما بدأ معها الأمر استمتاع فضول أكثر منه استمتاع غرائز، كما خيل إليه، لكنها مع انطلاقة جموحهم كان لا بد لالتذاذاتهم وشهقاتهم الساحرة أن تنعكس عليها، فتتابع بذلك متشوقة، وتتعامل مع أسرار تلك اللقاءات المتجددة بوداعة وغبطة عاشقة. فما حدث معه لا شك حدث مراراً مع فتية آخرين. فهي إما قناع شمعي ميت لا تخفي وراءها سوى الفراغ وهي تأخذ النقود من أيدي الفتيان ثم تدخلها في شق الصندوق، وإما فوران داخلي خالص عندما يشتعل قلبها بعاطفة منسية تستبد بها فلا تستطيع أن تقاوم أكثر ثورة فحولاتهم الناهضة في انتصاب فظيع تحت السراويل، وما يبقى عليها إلا أن تتوجه إليهم بالطريقة الصحيحة والمناسبة. وكامرأة ذات ماضٍ يعرفه الجميع، ربما اخترعت هذه المملكة بالإضافة إلى هدفٍ كسب المال، لتجعل منها آخر مطاف الرحلة وتعبر بها الشطر الأخير من شيخوختها الذابلة، فبحكم طبيعة ذلك الماضي قد لا تستطيع أن تتخيل العالم إلا

كمجمع للفحش يستيقظ باللذة ويموت فيها.

هكذا كان فتى الديك الرومي يفكر عندما قطع عليه أدهم أفندي الصمت وسأله وهو يستبدل جندياً أبيض بوزير.

ـ هل ما زالتا هناك؟

انتبه الفتى للسؤال مستغرباً فتلك كانت بادرة اليقظة الوحيدة التي يستشعرها من صديقه الكبير بعد أسابيع عديدة من الضياع. سأله بشيء من الدهشة:

ـ من تقصد عم أدهم؟

أجاب أدهم أفندي:

ـ هيلانة وحفيدتها.

ما دام حياً لن يستطيع فتى الديك الرومي أن يفك لغز تلك اللحظة المحيرة التي سأله فيها أدهم أفندي عن المرأتين وهي اللحظة نفسها التي كان يفكر فيها بهما بصمت وسرية. مع ذلك ظل مرتبكاً أمام سؤاله لأنه لا يزال عاجزاً عن تذليل صمته وغموضه ومعرفة ماذا يريد أحياناً وبماذا يفكر.

أجابه الفتى:

ـ ما زالتا هناك. لكنهما نقلتا المقصورة مسافة قليلة باتجاه الشرق بسبب النفط.

في بحر ذلك الأسبوع جنحت سفينة شحن محملة بالنفط بعد أن خرجت من المصب البحري القريب من البلدة. وقبل أن تتجاوز

الحدود الإقليمية تعرضت لنوّة بحرية شديدة قلقلتها وهددتها بخطر الغرق. بادر قبطان السفينة إلى إنقاذها وأفرغ حمولتها في البحر، فطفا النفط الخام فوق سطح الماء مشكلاً بقعة جحيمية عريضة انزلقت فوق الأمواج إلى الشاطئ، وما لبثت أن غمرت البر على مسافة عشرات الأمتار ببقع الزيت اللزجة والكاز الأسود وأعداد لا تحصى من الأسماك والطيور البحرية النافقة، وملأت أجواء البلدة برائحتها النفاذة.

توقف أدهم أفندي عن اللعب ونظر حوله دون أن تحمل نظراته تساؤلاً أو فكرة معينة. أوراق وأختام مبعثرة فوق الطاولة. راديو. ثلاث قبعات. بيجاما من الأطلس. حذاءان موحلان من نزهات الفترة الأخيرة. توقف بنظره قليلاً عند ساعة الجدار ذات العصفور الناطق بالوقت، والمسافة المنتقصة التي بدأ يقتحمها باتجاه الفتى أخذت تعطي وجهه المغلق تعبيراً ساذجاً وشعوراً بالتفكير أقل مأساوية وقهراً. ودون أن ينظر إلى عينيه قال له وهو يجهد كي يمنع نفسه من إظهار أي انفعال:

ــ هل تعرف الطريق إلى هناك؟

نحّى فتى الديك الرومي رقعة الشطرنج جانباً بحركة انتقامية نزقة. وهبّ من قعدته في زوبعة قالعة. ملأ أختام البريد في درجها الخاص، واحتضن الدرج بين ذراعيه كما كان يحتضن ديكه الرومي، وهتف متهيئاً للانطلاق:

ــ أعرفه. وأستطيع أن أقودك إلى هناك وأنا معصوب العينين.

المؤلف

ولد في مدينة جبلة الواقعة على الساحل السوري عام ١٩٤٨.

عمل الكاتب في الصحافة السورية منذ عام ١٩٧٤ حتى أواسط التسعينات.

بعد ذلك انتقل إلى الكتابة الدرامية للتلفزيون. فكتب عدة مسلسلات طويلة هامة منها: «هوى بحري» و«الطويبي» و«طيور الشوك» و«نزار قباني» و«أسمهان». كما حول عدة روايات عالمية إلى أعمال فنية منها: «بيت الأرواح» لإليزابيل ألليندي، و«البؤساء» لفيكتور هيغو، وذلك بالتعاون مع أميز المخرجين في الدراما السورية أمثال باسل الخطيب وأيمن زيدان وشوقي الماجري.

«بريد التائه» هي روايته الثانية بعد «هوى بحري» وتليها رواية «لحظة رحيل» تحت الطبع.



بريد تائه

قمر الزمان علوش

«هذا ما كان يفكر به أدهم أفندي عندما وصل بأختامه إلى حدود السرة. غياب فتى الديك الرومي عن البيت طيلة النهار شغل باله قليلا. ومرت لحظة اختلط عليه الأمر فلم يعد يتذكر بدقة ما إذا كان ما فكر به خلال الدقائق الماضية فكر به وحسب، أم أنه قاله لرتيبة بصوت مسموع. سألها إن كانت تصغي إليه؟ فأجابت: لا. لأنها هي التي كانت تتحدث وهو الذي كان يصغي إليها. في الواقع كان الاثنان يتحدثان بصوت مسموع، إذ لم يعد من النادر أن يتمتم كل منهما بأشياء من هواجسه دون أن ينتبه إليه الآخر.

فجأة أضيء ممر الشرفة بأنوار عابرة خافتة تسللت إليهما عبر شقوق النافذة. نهد أدهم أفندي إلى الشرفة لاستطلاع الأمر، بينما وضعت رتيبة روب النوم الرجالي فوق بدنها وفتحت النافذة. وقبل أن تستوعب ما يجري هناك رأت مشهداً حياً من الغرابة لا يبدو أنه من حقيقة هذا العالم، فأطلقت حنجرتها صيحة رعوية واندفعت إلى الخارج بنشاط صاخب.

كان فتى الديك الرومي في نهاية الممر تحفّ به من كل جانب وعلى رقعة واسعة من الأرض أضواء سحرية متحركة. لقد أمضى نهاره ذاك في تجميع أكبر عددٍ ممكن من سلاحف الجداول وضفادعها. ثبّت على دروع السلاحف شموعاً ضخمةً بشكل محكم، ودهن الضفادع بمسحوق فوسفوري مضيء، وانطلق بها زاحفةً متقافزة حوله فوق أرض الممشى باتجاه الحجرة التي يقضي فيها أدهم أفندي ورتيبة أفضل ساعاتهما.

ناداهما:

ـ لا تخافا هذا أنا...».

من الرواية



